بسم الله الرحمن الرحيم

الأمة الإسلامية من التبعية إلى الريادة
معالم الأحياء الحضاري الإسلامي

تأليف
محمد محمد بدري

1414 هـ

منبر التوحيد والجهاد

* * *

http://www.tawhed.ws
http://www.almaqdese.net
http://www.alsunnah.info
http://www.abu-qatada.com

إهداء

إلى الطليعة المؤمنة التي عزمت العزمة، ومضت في الطريق تسعى لإنتشال الأمة الإسلامية من مؤخرة القافلة البشرية، والانطلاق بها إلى قيادة تلك القافلة.

* * *

الفهرس

المقدمة:

الانطلاقة الأولى: الفرقان الإسلامي... وانطلاقة الإحياء

الانطلاقة الثانية: الهّوية الإسلامية... وإحياء الأمة

الانطلاقة الثالثة: التربية الشاملة... وإحياء الربانية

الانطلاقة الرابعة: إحياء الأمة... والحكم الإسلامي

الانطلاقة الخامسة: الطليعة المؤمنة... وقيادة الأمة

الانطلاقة السادسة: الفاعلية الإسلامية... والريادة البشرية

الخلاصة: هذا هو الطريق

المقدمة

إن المسلم الذي يرى الحياة من خلال واقعه. وليس من خلال أمانيه، لا بد أن يرى واقع الأمة الإسلامية اليوم هو مصداق قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تدعى الأكلة إلى قصعتها"، قالوا: أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: "بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله المهابة من صدور أعدائكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن"، قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: "حب الدنيا وكراهية الموت".

فقد أصبحت الأمة الإسلامية غثاء من النفايات البشرية الخاوية، تعيش على ضفاف مجرى الحياة الإنسانية كدويلات متناثرة ومتصارعة تفصل بينها حدود جغرافية ونعرات قومية مصطنعة، وتعلوها راية الوطنية، وتحكمها قوانين الغرب العلمانية... تدور بها الدوّامات السياسية فلا تملك نفسها عن الدوران ولا تختار حتى المكان الذي تدور فيه!

لقد قذف الله تعالى في قلوب المسلمين الوهن فأصبحت أمتهم تخاف من تكاليف الحرية ومجابهة الظلم في الداخل، وتجبن عن صد الغزاة في الخارج... فتداعت عليها الأمم، وأحاط بها الأعداء الذين أوصلوها إلى مرحلة القصعة المستباحة التي أنذرها إياها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وهكذا... بعد أن كانت الأمة الإسلامية - يوماً من الأيام - تحتل مكانها في قيادة البشرية، صارت تزحف وراء غبار الركب البشري في تبعية ذليلة تضيع معها الذاتية ويتحول أصحابها إلى خدمٍ للآخرين!

ولا ريب أن هذا الحال تُؤرق أكثر المسلمين وتقض مضاجعهم، فتقفز إلى أذهانهم أسئلة كثيرة: كيف نخرج بأمتنا من أزمتها، وننتقل بها من الاستضعاف إلى التمكين؟ ومن التبعية إلى الريادة؟

كيف نرفع غثاء الأمة الإسلامية من حضيضه الذي يعيش فيه ليعود كما أرداه الله: {كنتم خير أمة أُخْرِجت للناس}؟

ولكي نكون قادرين على تحديد الجواب الكافي لكل هذه الأسئلة، لا بد أن نؤمن أن واقعنا الذي نعيشه اليوم لا يخرج عن أن يكون نتيجة طبيعية للمقدمات التي صغناها بأيدينا، وأن نزول الأمة الإسلامية من عليائها إلى هذا الدرك من الذل والهوان الذي وصلت إليه اليوم... كل ذلك إنما حدث وفق سنن ربانية لا تحابي أحداً مهما زعم لنفسه من مسوّغات المحاباة؟!

ومن ثم، فإن عودة الأمة الإسلامية إلى الريادة البشرية من جديد تخضع لذات السنن الربانية التي لا يجدي معها تعجّل الأذكياء أو أوهام الأصفياء، والتي تربط النجاح في الوصول إلى الأهداف بالوسائل الموصّلة إليها، وليس بأمور سحرية غامضة الأسباب... وتجعل النصر في أمور الدنيا هو من يملك إلى أهدافه منهاجاً واضحاً يوصّل إليها، سواء كانت أهدافه سليمة أم لا ... {كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك، وما كان عطاء ربك محظوراً}...

ومن هنا، فقد مسّت الحاجة إلى منهاج محدد يغطي كافة مراحل التي تمر بها الأمة الإسلامية حتى النصر والتمكين وقيادة البشرية... يغطي كل ذلك بالاستراتيجية والتخطيط والمعرفة.

ولأن واقع الأمة الإسلامية اليوم هو واقع أمة ماتت أو كادت أن تموت، فإن المنهاج المنشود لتغيير هذا الواقع، لا بد أن يكون منهاج إحياء شامل يجدد للأمة أمر دينها علماً وعملاً ودعوةً وجهاداً حتى تسترد عافيتها وتدرج على طريق الرشد من جديد.

ولكي يظهر في الأمة ذلك المنهاج للأحياء الإسلامي، لا بد من معالم مرشدة، توفر الجهد وتطلق الطاقات... تحكم خطى الأمة وتُوَجه سير أفرادها.

لا بد من معالم في طريق الأحياء الإسلامي؛ حتى لا نبتعد عن الإسلام وسيلة ونحن نتجه إليه هدفاً، وحتى نجمع إلى إخلاصنا، الاستراتيجية الصائبة فتثمر جهودنا في الدنيا، ويقبلها الله في الآخرة.

لا بد من معالم في طريق الإحياء الإسلامي؛ حتى لا نبقى نتطلع دائماً إلى قيادة البشرية كما يتطلع الحالمون إلى أحلامهم من بعيد، دون أن يملكوا السبيل إلى تحويلها إلى واقع حي ثابت.

وعلى طريق بيان هذه المعالم، كتبت هذا البحث الذي أستمد أفكاره من القرآن والسنة، ومن طروحات أهل السنة والجماعة المتميزة حاضراً وماضياً ومن مبدأ التجديد والأحياء المعروف في التاريخ الإسلامي.

وأحاول فيه أن أرسم معالم الميدان الذي أود أن تتضام فيه جهود المسلمين في إصرار على الانتصار للإسلام، لا يطفئ غلتهم فيه إلا أن يروا حكم الله قائماً، وأمة الإسلام تقود البشرية...

ولا أزعم لنفسي العصمة، ولا أدعي لها الإحاطة، وكلي رجاء أن أجد في وعي الإخوة القراء الفكر الناقد الذي يواجه القراءة بروح ناقدة تهدف إلى إثراء أفكار البحث، وتعميق معالجتها، وتدقيق طرحها.

فليكن هذا البحث دعوة لكل فقهاء الصحوة الإسلامية من الدعاة القادرين والقادة المخلصين، إلى مزيد من إمعان الفكر وتدقيق النظر حول منهاج إحياء الأمة الإسلامية الذي يخرجها الله به من التبعية إلى الريادة...

وليكن هذا البحث نقطة البدء للذين سوف يختارهم الله لصياغة المشروع الحضاري الإسلامي الذي يتنزل فيه الإسلام على واقع الحياة فيغطي مختلف جوانبها التي تحكمها اليوم مشروعات وضعية تناقض الإسلام...

أسأل الله عز وجل أن يجعل عملنا خالصاً صائباً... خاصاً لوجهه الكريم... صائباً وفق كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

ورحم الله أخاً قرأ فدعا لي بظهر الغيب، أو وجد عيباً فأصلحه. والله المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

والحمد لله رب العالمين

محمد محمد بدري

الانطلاقة الأولى الفرقان الإسلامي... وانطلاقة الأحياء

حتى يغيروا ما بأنفسهم:

يخضع إحياء أمة من الأمم أو حماية مجتمع ما لسنن ربانية جارية تنطبق على الأمة الإسلامية كما تنطبق على غيرها من الأمم، وكل من يريد بناء مجتمع وإحياء أمة إذا لم يَسر وفق هذه السنن ولم يفقه عوامل الهدم والبناء فلن يتمكن من إحياء هذه الأمة أو بناء ذلك المجتمع، وسيخر صريع السنن الربانية الجارية التي لا تحابي أحداً!

ومن سنن الله أن البشر يتحملون مسؤوليتهم في الرّقيّ والانحطاط... فالتغيير يبدأ من النفس سواء بالارتقاء والارتفاع إلى أعلى أو بالانتكاس والهبوط إلى أسفل. وقد طرح القرآن الحد الإيجابيّ لهذا التغيير بقول الله عز وجل: {إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم} وطرح حدّه السلبي بقوله سبحانه: {ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم}.

إن بداية الخروج مما نحن فيه، هو أن نخرج من نطاق التعميمات والشعارات والاقتصار على التوجه صوب الآخر، والإلقاء بالتبعة عليه، لنضع أيدينا على الأسباب الحقيقية التي هيأت الأمة للإصابة، فإذا فعلنا ذلك كانت هذه هي الخطوة الأولى والحاسمة التي توقفنا على الأرض التي تسمح برؤية الأشياء على حقيقتها، ومواجهة مشاكل الواقع من خلال سُنة الله الربانية في تغيير النفس والمجتمع، والتي تقرر أن التغيير إلى الأفضل أو الأسوأ لا يحدث إلا إذا سبقه تغيير جماعي يقوم به القوم لما بالأنفس من أفكار ومفاهيم واتجاهات فيغير الله ما بهم وفق ما صارت إليه

نفوسهم وأعمالهم... وتنفذ فيهم سنته بناء على تعرضهم لهذه السنة بسلوكهم.

إن التغيير ليس هدية تُعْطى، ولا غنيمة تُغْتصب، وإنما هو نتيجة حتمية للقيام بتغيير ما بالأنفس، فهما متلازمان... ولا يتغيّر واقع الأمة إلا إذا تغيّر ما بأنفس أفرادها...

تغييراً يمتد إلى كافة المساحات وسائر المكونات النفسية الأساسية: العقلية والروحية والجسدية، وكل العلاقات والبنى الداخلية مع الذات ومع الآخرين، والتي تمكن الجماعة المسلمة من مواجهة حركة التاريخ، فإذا أردنا تغيير واقعنا الذي نشكو منه، وإذا أردنا إحياء الأمة الإسلامية فإن السبيل إلى ذلك هو تصفية أفكارنا وإطارنا الخلقي مما فيه من عوامل قتّالة، ورمم لا فائدة منها حتى يصفو جو الأمة للعوامل الحيّة والداعية للحياة، والتي بها يتم إحياء الأمة.

إن تغيير ما بأنفس الأفراد هو الشرط الجوهري لكل تغيير للمجتمع والأمة، ولن يكون هناك سحر يمحو ضعف أمتنا وتخلفها في لحظات ويبدلهما تقدماً وقوة... إنما هناك سنن ربانية تقوم عليها حياة الناس في الأرض... وليس من السنن الربانية أن نفسد ديننا ثم نقول: يا رب. يا رب.

إنما لا بد من تغيير ما بالأنفس من أفكار ومفاهيم واتجاهات، ولن تنجو أمتنا من التبعية والاستضعاف والفرقة، إلا إذا نجت نفوس أفرادها من أن تتسع للتبعية، وتخلصت من تلك الروح التي تؤهلها للاستضعاف...

ولكي لا نكون مستعبدين ومستضعفين، يجب أن نتخلص من القابلية للاستعباد والاستضعاف... وهذا هو المنهج الصحيح للتغيير، والذي أضاءته بنورها الآية الكريمة: {إن الله لا يُغيّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم}[1].

* * *

[1] لمزيد من الاطلاع، راجع - إن شئت -:
- حتى يغيروا ما بأنفسهم، جودت سعيد، دار الفكر.
- مفاهيم ينبغي أن تصحح، محمد قطب، دار الشروق.
- مقومات التصور الإسلامي، سيد قطب، دار الشروق.
- في ظلال القرآن، ج 4، سيد قطب، دار الشروق.

الأفكار أساس التغيير:

تنطلق أية أمة من الأمم في دربها الحضاري من مجموعة الأفكار التي على أساسها تشيد الأمة صرح حضارتها، ويقدم الواقع شواهد عديدة على أن سلوك الأفراد في مجتمع من المجتمعات ما هو إلا الترجمة العملية لما يؤمنون به من أفكار، ولهذا نجد أن المجتمعات تتقدم أو تتخلف تبعاً لنوعية الأفكار التي يعتنقها أفرادها...

فصحة المجتمعات أو مرضها أساسهما صحة الفكر أو مرضه، والمجتمعات التي تدور في فلك الأفكار الصحيحة، تتفوق على تلك التي تدور في فلك الأفكار الخاطئة، كما كانت حال الأمة المسلمة الأولى في صدر الإسلام وتفوقها على مجمتعات الرومان والفرس وغيرها.

ولأن الأفكار بهذا القدر من الأهمية، فإنه ومنذ أن تقرر في أوكار الصهيونية تدمير الخلافة الإسلامية، وأعداء الأمة الإسلامية يحرصون على تخريب الفكر الإسلامي وتشويه العقل المسلم من ناحية، ومن ناحية أخرى يقومون برصد الأفكار الفعالة التي تحاول إحياء الأمة، لكي يقضوا عليها في مهدها أو يحتووها قبل أن تصل إلى جماهير الأمة فتصحح وجهتها أو تُعدّل انحرافات أفرادها، ولتبقى الجماهير إذا اجتمعت تجتمع على أساس العاطفة وتحت سلطانها، وليس على أساس الفكرة... والمبدأ...

ومن هنا كانت مخططات أعداء الإسلام لاحتواء وتدمير الأمة الإسلامية تهدف دائماً إلى هزيمة الأمة فكرياً، لأن هزيمة الأمة في أفكارها تجرّدها من الحصانة وتتركها فريسة لأي مرض أو وباء فيسهل بعد ذلك احتواؤها وتفكيك معتقداتها.

لقد قامت الأمة الإسلامية الأولى على الفكرة والعقيدة، فكانت أرحب في آفاقها من الدم والأرض والإقليم... وكانت فكرتها التي قامت عليها ما قاله ربعّي بن عامر حين دخل على رستم قائد الفرس في مجلسه فسأله: ما الذي جاء بكم؟ فقال: "الله ابتعثنا، والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله... ومن ضيق الدنيا إلى سعتها... ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام"...

وهذه هي الفكرة والرسالة التي تحملها أمتنا... أمة الفكرة.

إن إحياء الأمة وبناء المجتمع، بل وهيبة تلك الأمة وهذا المجتمع إنما تقوم على الأفكار... والصراع في الواقع إنما يكون بين فكرتين، فكرة حية تصنع الرجال وتُحّي الأمة، وفكرة ميتة لا تصنع أولئك الرجال، ولا تحي الأمة، فهناك أفكار تدفع أفراد الأمة إلى التحرك نحو تغيير الواقع الفاسد مهما كلفهم ذلك من تضحيات، وأخرى تجعلهم يرتكسون في أوحال الذل، ومستنقعات الاستعباد...

ولذلك فإن الطريق إلى التغيير المنشود، وإحياء الأمة الإسلامية لا بد من رفض الأفكار السلبية الخاطئة في مجال العقائد والسلوك والعلاقات الاجتماعية، وقبول الأفكار الصحيحة التي تكون الأساس الذي يقوم عليه التغيير[2].

تصحيح الأفكار والمفاهيم:

يؤكد الإسلام على المحافظة على الأساس الفكري للأمة، ابتداء بالعقيدة، وانتهاء بالمفاهيم العامة للإنسان عن الكون والحياة، ولا يترك المنهاج الإسلامي أي انحراف في الأفكار والمفاهيم دون تصحيح، لأن هذا الانحراف يفسح المجال للثغرات العلمية في الهيكل الفكري والعملي في حياة الأمة، ويصبح قيداً يُكبّل الأمة ويمنعها من التحرك نحو التغيير.

ولا شك أن إحياء هذه الأمة لن يكون إلا في نفس الظروف التي ولدت فيها وحين وُلدت هذه الأمة كان الميلاد صادراً عن عقيدة واضحة قوية، ولسان يستمد من سحر القرآن تأثيره ليحيى أمة كادت أن تموت، فإذا بها تنطلق مكتسحة العالم بحضارة وتقدم.

---

[2] لمزيد من الاطلاع راجع - إن شئت -:
- هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، ماجد عرسان الكيلاني، الدار السعودية للنشر والتوزيع.
- نظرات في مسيرة العمل الإسلامي، عمر عبيد حسنة، كتاب الأمة.
- المسلمون وظاهرة الهزيمة النفسية، عبد الله الشبانة، دار طيبة، الرياض.

ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها تصحيح المفاهيم أولاً، ثم إقامة بناء جديد على المفاهيم الصحيحة. ولا يمكن إحياء الأمة الإسلامية إلا إذا قام هذا الإحياء على أسس أهمها الرجوع إلى المنابع الأولى للإسلام، الكتاب والسنة، وتخليص عقائد المسلمين مما علق بها، وليس منها، والذي كان له أثر على سلوكهم وعبادتهم وحركتهم.

إن الأفكار الخاطئة، والمفاهيم المنحرفة تُشَكِّل في أمتنا شبكة واسعة، تبدأ من العقيدة وتنتهي بالسلوك، مروراً بالعلاقات الاجتماعية والمواقف السياسية. ويمثل هذا الأخطبوط الذي يمد سيقانه إلى كل مجالات الحياة، يمثل قيوداً وأغلالاً تمنع الأمة من التحرك إلى التغيير، ولن يضع عن هذه الأمة إصرها والأغلال التي صارت عليها إلا الأفكار الصحيحة والمفاهيم الواضحة الصافية، ولذلك فلا بد من تصحيح الأفكار والمفاهيم المنحرفة، ومنها:

- مفهوم أن لا إله إلا الله. كلمة تطلق في الهواء وأنه ليس لها مقتضيات!

- مفهوم العبادة، وانحصارها في شعائر التعبد... بينما هي غاية الوجود الإنساني كله، {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون}.

- فكرة الجبر، التي تسلب الإنسان إرادته، وتجعله غير مسؤول عن رأيه أو ما يصدر عنه.

- فكرة الخضوع لأي سلطة مهما كان طريقها في الحكم على اعتبار أنها أولي الأمر!

... فإذا استقرت المفاهيم الصحيحة في قلوب الأمة، كان ذلك هو بداية الانطلاقة القوية لتحقيقها في صورة واقع بشري يختلف اختلافاً أصيلاً وكلياً عن واقع البشرية اليوم[3].

* * *

[3] لمزيد من الاطلاع، راجع - إن شئت -:
- شروط النهضة، مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق.
- مشكلة الأفكار، مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق.
- مفاهيم ينبغي أن تصحح، محمد قطب، دار الشروق.

إقامة الفرقان الإسلامي:

لا يمكن تحقيق انطلاقة قوية للإحياء الإسلامي دون تصور إسلامي صحيح، وأمة تملك الفرقان الذي يُنير البصيرة، ويرفع اللبس، ويكشف الطريق.

ولا يتحقق الفرقان إلا من خلال نظرة إسلامية فيها حرارة العقيدة، واستجابة السلوك، وحركية الدعوة والعمل الإسلامي.

ومن هنا فإن أي انتشار جماهيري للدعوة لن يكون له وزن ولا فاعلية إلا إذا تأسس على رؤية واضحة وفهم شامل لحقيقة الإسلام... وتصور عميق لطبيعة الواقع الذي تهدف الدعوة إلى تغييره... وعندما لا تضل بنا الطريق ولا تزل بنا القدم.

إن الرحلة الطويلة لإعادة العالم الإسلامي إلى الإسلام.. وإعادة الإسلام إلى العالم الإسلامي، وإلى كل أرجاء الأرض... إنما تبدأ من هنا... من إسقاط اللافتات الكاذبة، وكشف المقولات الغامضة، وفضح الشعارات الملبسة التي تتخفى وراءها العلمانية الكافرة - بأفكارها وأفرادها وتجمعاتها - لتبث سمومها في عقول وقلوب أبناء الأمة... وتلبّس على العامة أمر دينهم وعقيدتهم، بل تحفزهم ضد إخوانهم الصادقين الواعين بحقيقة هذا الصراع المنبهين إلى خطره الداهم على الدين وأهله.

لقد غابت راية الإسلام عن أرض الإسلام، وحكمتها نظم علمانية لا دينية تُعْلي أحكام الجاهلية، وتتستر بلافتة الإسلام، ومن ثم وجب على كل من يتضلع بمهمة إحياء الأمة الإسلامية، أن يسقط هذه اللافتة الكاذبة عن العلمانية لتظهر على حقيقتها... كفراً وشركاً يناقض التوحيد والإسلام، وليس له أدنى شرعية في أن يحكم ديار الإسلام...

وليس لحكامه العملاء أدنى حق في السمع والطاعة من الأمة... وليكون هذا الفرقان بين الإسلام والعلمانية هو نقطة البدء في إسقاط العلمانية وقطع الطريق على عودتها في المستقبل.

إن الواقع الفكريّ والعقائديّ للأمة الإسلامية يؤكد أنها في حاجة ماسة إلى حركة إحياء شاملة، تجدد للأمة

أمر دينها، وتصحح ما فسد من عقائدها وتقوم ما اعوج من سلوكها، وتنفث فيها روح الجهاد والتصدي لأعداء الله... ولا بد لهذه الحركة في طريقها للتغيير من مواجهة مؤامرة احتواء العمل الإسلامي التي تمارسها الأنظمة العلمانية بطرق التمييع والالتواء، وعبر لغة الحوار والملاءمة السياسية... والتي يتم عن طريقها تحويل الإسلام الواحد إلى إسلامات متعددة، وذلك عبر مزجه بغيره من الأفكار من علمانية وقومية ووطنية.

وما لم تقتحم هذه الحركة التي تحمل أفكار أهل السنة والجماعة، وتنطلق في الاتجاه الإسلامي الصحيح... ما لم تقتحم ساحة العمل الإسلامي، لتدفع الأمة إلى طريق الرشد من جديد... فإن هناك من ينتظر على الطرف الآخر ليطرح ما عنده من أفكار واتجاهات.. إمّا مثبطة... أو أنصاف حلول... أو... إلى آخر هذه الأفكار التي تُضيّع الوقت والجهد، ولا تعطي ثماراً بقدر الثمن المدفوع[4].

الانطلاقة الثانية
الهوية الإسلامية... وإحياء الأمة

هوية الأمة الإسلامية:

لكل أمة من الأمم ثوابت تمثل القاعدة الأساسية لبناء الأمة. وفي طليعة هذه الثوابت تأتي الهويّة باعتبارها المحور الذي تتمركز حوله بقية الثوابت، والذي يستقطب حوله أفراد الأمة. ولا تستحق أمة من الأمم وصف الأمة حتى يكون لها هويتها المستقلة والمتميزة عن غيرها من الأمم.

---

[4] لمزيد من الاطلاع، راجع - إن شئت -:
- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق.
- طريق الدعوة في ظلال القرآن، أحمد فائر، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- معالم الانطلاقة الكبرى، محمد المصري، دار طيبة، الرياض.

وإذن فالأمة بنيان يتجمع فيه الأفراد حول هويّة ثابتة، تكون هي الصبغة التي تصبغ الأمة، وتحدد سلوك أفرادها، وتكيّف ردود أفعالهم تجاه الأحداث.

فتحديد الهويّة ليس ترفاً فكرياً، أو جدلاً فلسفياً. بل هو أمر جاد يتعلق - بل يقرر - طبيعة الصراع المصيري للأمة مع أعدائها، إذ أن الإنسان لا يستطيع أن يحدد موقفه من غيره، قبل أن يحدد موقفه من نفسه: من هو؟ ومن يكون؟ وماذا يريد؟ وبدون هذا الحسم للهويّة الذاتية، لا يمكن تحديد موقف فعّال من أي قضية من قضايا المصير والتقدم والحياة الكريمة.

والإسلام وحده هو هويّة الأمة الإسلامية وهو عصب حركتها ومحور اجتماعها، وهو القوة الدافعة التي تُفَجّر طاقات الأمة وتُقوّي وقفتها في مواجهة أعدائها. ويوم أن كان الإسلام هو هويّة هذه الأمة، كان المسلمون هم سادة الأرض بحق وصدق وعدل... وبغيره ستظل الأمة تلهث وراء المظاهر الحضارية تحسبها التقدم، وهي القشور والخداع.

لقد بلور الإسلام هوية الأمة الإسلامية، ومنح أفرادها الجنسية الإيمانية، فاجتمعوا حول الإسلام وربط بينهم حبل الله كارتباط الجسد الواحد... ولم يستطيع الغزو العسكري أو الفكري أن يحكم الأمة الإسلامية بغير الإسلام إلى في ظل العصا الغليظة، والاستبداد السياسي، والظلم الاجتماعي، والأنظمة الجبرية... حيث تلغى إنسانية الإنسان، وتطارد حريته، وتصادر هويته!

... واليوم يبقى الإسلام هو وحده المنهج الذي يمثل خصائص الأمة ومنطلقاتها الاعتقادية وأهدافها الحضارية... ذلك أن هو هوية الأمة الإسلامية[5].

* * *

[5] لمزيد من الاطلاع راجع - إن شئت:
- الولاء والبراء، محمد سعيد القحطاني، رسالة ماجستير قدمت لجامعة أم القرى بمكة.
- تطور الفكر السياسي في مصر، عبد الجواد ياسين، المختار الإسلامي، مصر.
- المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري، محسن عبد الحميد، قطر.
- الإسلام والمدنية الحديثة، أبو الأعلى المودودي.
- واقعنا المعاصر، محمد قطب، دار الشروق.

التغريب... والاغتراب:

كانت الحصيلة المُرة التي خرج بها الصليبيون من حروبهم مع المسلمين سبباً في أن تعي القوى المتربصة بالأمة الإسلامية الدرس جيداً، وتدرك أنه لن يكفي ضرب الأداة العسكرية لهذه الأمة لكي تسقط... بل لا بد من ضرب قوتها الحقيقية عبر اقتلاع عقيدتها، وتدمير هويّتها، وتزييف وعيها... حتى لا تكون هذه القوة... العقيدة... الهويّة... الوعي سبباً في أن تقوم هذه الأمة من تحت رماد السقوط كنار عملاقة تحرق في طريقها كل الأعداء...

ولقد ابتدأ الأعداء أولى خطوات الخطة المرسومة بعمليتّي هدم وبناء! هدم لمعالم الشخصية الإسلامية، وبناء لمعالم الشخصية الأوربية الغربية... وهو ما أطلق عليه لفظة التغريب... وقُصِد به طبع المسلمين بطابع الحضارة الغربية والثقافة الغربية. وليتحول انتماء المسلم من الانتماء إلى الإسلام... إلى الانتماء إلى الغرب، فلا يرى الأشياء إلا كما يراها الغربي، ولا يتذوّقها ولا يقدّرها إلا كما يقدرها... فتتحول الأمة الإسلامية إلى التبعية المطلقة للغرب، وتصبح ذيلاً لدول الاستعباد الغربي!

وإذا صارت الأمة إلى هذه التبعية المطلقة للغرب فإنها لا تشعر بالرغبة في الانفصال عنه، فضلاً عن جهاده ومقاومته...

ولمّا أدرك أعداء الأمة الإسلامية مدى جدوى هذه الفكرة في نزع الولاء الإسلامي ليحل محله الولاء الجاهلي، وفي تغييب الهوية الإسلامية التي تُميز المسلم وتجعله مستعصياً على الذوبان في الأمم الأخرى... لمّا أدرك الأعداء ذلك أخذوا في بث سموم الفكرة الوطنية، والتي تبث الشعور بالوطنية الإقليمية في الأمة، وتنادي بأن الأمة تقوم - حسب تصورهم - على الجنس لا على الدين...، فالوطنيون يحبون أبناء وطنهم وإن كانوا على غير ملتهم أكثر من محبتهم لمن كانوا على ملتهم إذا لم يكونوا في وطنهم!

ولقد حقق أعداء الأمة الإسلامية من خلال فكرة الوطنية أكثر من هدف في وقت واحد...

كان الهدف الأول هو تحويل حركات الجهاد الإسلامي ضد الاستعمار الصليبي إلى حركات وطنية لا تنظر إلى

العدو الصليبي على أنه صليبي مستعمر، ولكن على أساس أنه مستعمر فقط.

وكان الهدف الثاني: هو تحويل حركات الجهاد الإسلامي إلى حركات سياسية، عن طريق تحويلها إلى حركات وطنية يمكن التفاهم معها بسهولة...

وكان الهدف الثالث: هو تيسير عملية التغريب من خلال تحويل حركة الجهاد الإسلامي إلى حركات وطنية ليس لديها ما يمنعها من الأخذ من أفكار وتقاليد وأنماط سلوك من تجارب من مستعمرين!

... لقد قام أعداء الأمة الإسلامية عبر تخطيط ماكر خبيث بتحويل روح العداء لهم، والتي يشعر بها المسلم من خلال عقيدة الولاء والبراء، قاموا بتحويل العداوة إلى شعور بالمحبة والارتياح، بل إلى انبهار وشعور بأنهم القادة والسادة!

وقد حدث ذلك عبر خطوات: التغريب حيث تم هدم الشخصية الإسلامية وبناء الشخصية الغربية... ثم نبش الحضارات القديمة وإحياء معارفها لذبذبة ولاء المسلمين بين الإسلام وتلك الحضارات... ثم قاموا بتأكيد ذلك عبر الفكرة الوطنية التي كرّست كيانات التجزئة في الأمة الإسلامية... ثم في أعطاف الوطنية، خرجت موجات العلمانية التي أسقطت راية الشريعة وأحلت محلها راية القوانين الجاهلية.

... وفي ظل العلمانية جاء الغرب بالحكّام العملاء الذين أشربوا في قلوبهم ثقافة الغرب، وتربوا على يديه ونشأوا في كنفه ورعايته... وقام هؤلاء العملاء باقتلاع عقيدة الأمة، وتدمير هويتها، وتزييف وعيها... فصارت الأمة الإسلامية بعد الاقتلاع من الجذور... والقطع عن المسار التاريخي - صارت كالخُشُب المسندة، لا كالشجرة عميقة الجذور طيبة الثمر، يانعة الاخضرار! بل أصبحت الأمة الإسلامية بخروجها عن مسارها التاريخي، كالماء الآسن بعد أن خرج عن مجرى النهر...

وهكذا كانت رياح الغرب، رياح تدمير لمقومات أمتنا الثقافية والاجتماعية والسياسية، وذلك عبر الحكّام العملاء

الذين هم من جلدتنا ويتكملون بألسنتنا! والذين تمت علـى أيديهم خطة الغرب الصليبي في التغريب... والاغتراب[6].

* * *

إحياء الهوية الإسلامية:

تشـكل الهويـة - فـي أيـة أمـة مـن الأمـم - الحـافز الأيديولوجي والدافع النفسي والشعوري الـذي يـدفع الأمـة نحو التقدم بقوة في اتجاه الإحيـاء الحضاري، ويقـاوم فـي ذات الـوقت الاجتيـاح الحضـاري للأمم الأخـرى... فالهويـة تُشْـعر الأمــة أنهــا المركــز الــذي يجــب أن ينجــذب إليــه الآخرون... وليس هذا المركز خارجها ويجب عليهـا هـي أن تنجذب إليه، وهذا يقّوى في أفراد الأمة قـوة الصـمود أمـام تيـار الغــزو الحضـاري، ويُفَجـر فيهـم الطاقـات الكامنـة فتستطيع الأمة القفـز فـوق كـل الحـواجز لتحقيـق التقـدم والإنجاز الحضاري.

أما إذا فقدت الأمة - أية أمة - هويتها المسـتقلة فـإن هذا يعني لا محالة التبعية للأمم الأخرى والبقاء تحت سـياط الاستعباد والقهر!

إن نقطة التحول فـي طريـق إحيـاء الأمـة الإسـلامية، ونزع الريادة مـن يـد أعـدائها وبدايـة حضـارة الإسـلام مـن جديد، هي إحياء الهوية الإسلامية، لأنها هي الهوية الحقيقيـة للأمة، الموصولة الشرايين بتاريخها، والقادرة على مقاومـة الاجتياح الحضاري الغربي.

وتقوم الهوية في أيـة أمـة مـن الأمـم بـدور المعامـل الحضاري الذي يمتد عمودياً في أعماق الإنسان لكي يبعـث فيه الإحساس بمسؤوليته عن تقـدم أمتـه، فَيُفَجّـر طاقـاته في ذلك السبيل... ويمتد أفقياً في الأمة لتصب جهودها في المسالك الصحيحة التي تنسجم مع آمال الأمة وطموحاتها.

---

[6] لمزيد من الاطلاع، راجع - إن شئت:
- واقعنا المعاصر، محمد قطب، دار الشروق.
- إخراج الأمة المسلمة، ماجد عرسان الكيلاني، كتاب الأمة.
- مذاهب فكرية معاصرة، محمد قطب، دار الشروق.
- الاتجاهات الوطنيـة فـي الأدب المعاصـر، محمـد محمـد حسـين، مكتبة الآداب، مصر.

ولا شك أن الهويّة التي تنطبق مع الخيار الحضاري للأمة الإسلامية هي الهوية الإسلامية. ولذلك فإنه عندما طرح زعماء العلمانية الهوّية الوطنية كبديل للهوّية الإسلامية، حدث في الأمة فراغ اجتماعي، وأدى هذا الفراغ إلى ظواهر الاغتراب وفقدان الانتماء للأمة، وفي ظل الاغتراب أصبح العقلاء والحكماء من الأمة غير قادرين على التأثير في حركتها، وصارت الكلمة للسفهاء، وصار الحكم للأراذل، فكان الفساد العريض، والجهود الضائعة، والطاقات المستنزفة! وصارت الأمة إلى التبعية الذليلة. وهكذا لم يصبح أمامنا من سبيل لإخراج أمتنا من التبعية إلى الريادة إلا عبر إحياء الهوّية الإسلامية، وإيجاد المشروع الحضاري الإسلامي... ليكون ذلك سبيلاً إلى استقطاب أفراد الأمة، وملء الفراغ الاجتماعي، لتزول ظواهر الاغتراب، ويتولى أولو الألباب قيادة الأمة... وتصبح الهوية الإسلامية حافزاً للتغيير، ودافعاً للفاعلية، وهاجساً لصنع الحضارة[7].

الانطلاقة الثالثة

[7] لمزيد من الاطلاع راجع - إن شئت -:
- طريق البناء التربوي الإسلامي، عجيل النشمي، دار الدعوة، الكويت، دار الوفاء، مصر.
- العقل المسلم والرؤية الحضارية، عماد الدين خليل، دار الحرمين.
- لماذا نرفض العلمانية، محمد محمد بدري، دار ابن الجوزي، الدمام.

التربية الشاملة... وإحياء الربانية

الشمولية في التصور الإسلامي:

التصور الإسلامي تصور كامل، والشريعة الإسلامية شريعة شاملة، وقد أنزل الله هذه الشريعة فيها تبيان كل شيء يحتاج إليه الخلق في تكاليفهم التي أمِروا بها، وتعبداتهم التي طوقوها في أعناقهم، ولم يمت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كمل الدين بشهادة الله تعالى بذلك حيث قال تعالى: {اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً}.

والمنهج الإسلامي بهذه الشمولية يتيح للبشرية أن ترتشف من سلسبيله العذب، ومن معينه الصافي ما يرويها على مدى الزمان والأيام.

إن المنهج الإسلامي انطلاقة للحياة على الأرض، وليس مجموعة من الكلمات والتعاليم التي تضمها الأوراق أو تتناقلها الشفاة! بل هو منهج حياة شامل، بكل معاني الشمول... في كل حركة، وكل خالجة وكل خطوة...

إن الإسلام هو قاعدة الاعتقاد والعبادة، وقاعدة الخلق والسلوك، وقاعدة الحكم والنظام، وقاعدة النشاط السياسي والاقتصادي والاجتماعي. ومن ثم فهو الأصل الذي تنبثق عنه الدولة بتمامها وليس كما تقدمه الجاهلية المتغرّبة - مجرد فرع يشكّل مع فروع أخرى متعددة كيان الأمة... كما أنه ليس كما تزعم هذه الجاهلية مجرد شأن من شؤون المجتمع، مثل الشؤون الاقتصادية والشؤون الاجتماعية، والشؤون السياسية... وغيرها من الشؤون!

الدين في التصور الإسلامي، منهج شامل لكل الحياة...

فالإسلام يحتوي على نظم وأحكام في كل ناحية من نواحي الحياة، ويعطي تصوراً شاملاً لعملية التغيير الحضاري. وهو نظام يختلف في طبيعته وفكرته عن الحياة، ووسائله في تصريفها، يختلف في هذا كله عن النظم الغربية العلمانية التي تتصف بالجزئية والنظرة الأحادية.

ومن هنا، فالإسلام يتعامل مع مشكلات الأمة الإسلامية بكل مناهجه الفكرية، وتربيته السلوكية، وتشريعاته الاقتصادية والسياسية... الخ، وكل جزء من الإسلام يعالج جزءاً من مشاكل الأمة، ف كل الإسلام يعالج كل مشاكل الأمة...

ومن ثم يصل بالأمة - بل والمجتمع البشري - إلى حياة متوازنة وحضارة متكاملة تُعَبر بصدق عن فطرة الإنسان وكيانه الشامل[8].

* * *

التوجيه الإسلامي الشامل:

إن التوجيه الإسلامي الشامل يصوغ المسلم القادر على إحداث التغيير الجذري، وإعطاء البديل الحضاري، ولذلك فإن له طريقاً متميزاً في تحقيق ذلك الهدف:

والإسلام يعرض البديل عرضاً كاملاً، ولا يقف عند قضايا العقيدة فقط، بل يشرح نظام الإسلام كما يشرح العقيدة ويُبين العقيدة ويُبين الأخلاق ولا يترك الناس حتى يستيقنوا أن الإسلام حين يفيئون إليه سيبدّل حياتهم تبديلاً... سيبدّل تصوراتهم عن الحياة، كما سيبدل أوضاعهم كذلك، سيبدلها ليعطيهم خيراً منها بما لا يقاس. سيبدلها ليرفع تصوراتهم ويرفع أوضاعهم، ويجعلهم أقرب إلى المستوى الكريم اللائق بحياة الإنسان. والذي لا يتحقق إلا في ظل المجتمع الإسلامي الذي تحكمه العقيدة الإسلامية والتصور الإسلامي، كما تحكمه الشريعة الإسلامية والنظام الإسلامي.

وأما الأخلاق والقيم، فإن التوجيه الإسلامي لا يقدمها كعدد من الفضائل المبعثرة، كل على حده، كالصدق والأمانة والعفة والوفاء...إلخ...

إنما يقدمها كما هي على الحقيقة نظام متكامل لحياة شاملة. نظام يوّجه ويضبط كل النشاط الإنساني في شتى جوانب الحياة...

---

[8] لمزيد من الاطلاع راجع - إن شئت -:
- خصائص التصور الإسلامي، سيد قطب، دار الشروق.
- مقومات التصور الإسلامي، سيد قطب، دار الشروق.

وأما الأفكار، فإن التوجيه الإسلامي الشامل يركز على أن فقدان الرسالة التي قامت عليها الأمة، وضياع الغاية التي بُعِثَت من أجلها - وهي إخراج البشر من العبودية للبشر إلى العبودية لرب العالمين - يؤديان إلى انهيار الأمة وهلاكها...

وأما القاعدون من المسلمين الذين يظنون أنهم بأخلاقهم وصلاتهم وصيامهم يؤدون واجبهم تجاه أمتهم ويحملون رسالتها، فليعلموا أنه لا يصلح لهذا الدين إلا من أحاطه من جميع جوانبه، وأنه لن ينتصر آخر هذه الأمة إلا بما انتصر به أولها أيّ بالإيمان والجهاد والتضحية والثبات...

وأما قدرة الفرد على التغيير، فإن التوجيه الإسلامي الشامل يقوم على تعميق الإحساس بضرورة التغيير مع بث الثقة في أفراد الأمة وقدراتهم وإمكانتهم التي تؤهلهم لحمل مسؤولية التغيير، وذلك عبر إشعار جماهير الأمة بالوضع السيئ الذي تعيشه أمتهم، وإثارة تطلعاتهم إلى تغيير الواقع الجاهلي الذي يستهدف حريتهم، وحضارتهم، بل ولقمة عيشهم! ومن ثم حشد طاقات جماهير الأمة جميعاً لتصب في حركة تغييرية تسير بصورة تدريجية وتصاعدية حتى تبلغ ذروة أهدافها بإخراج جماهير الأمة من العبودية التي تؤلمها وتحز في صدورها، إلى الحرية التي لا تتحقق في ظل منهج من المناهج كما تتحقق في ظل الإسلام...

وهكذا هو التوجيه الإسلامي الشامل... يطرح الإسلام كمعادلة فكرية وسياسية واقتصادية وأخلاقية، وذلك في مواجهة المعادلة العلمانية التي تريد إبعاد الأمة عن خط الإسلام لتقربها إلى خط الكفر!

إن التوجيه الإسلامي الشامل يعرض الأفكار التي تشكّل طموح الأمة، وتوضح لها الطريق التي تسلكه لمقارعة الجاهلية وتحقيق تلك الطموحات... وكلما كانت هذه الأفكار سهلة الفهم والتداول، كلما كان ارتباط الأمة بها أقوى وأوثق. وكلما كانت هذه الأفكار شاملة، كلما سدّت المنافذ والثغرات التي ينفذ منها الإعلام الجاهلي فينشر الفساد والانحراف.

إن قوة الإسلام هي في أن يقدّم ويعرض بشكل كامل وشامل، ليكون قاعدة الفكر، ومنهج السلوك، وطريقة الحياة... وليحكم الحياة كلها...

وليكون الدين كله لله.

ولقد حرص الإعلام الجاهلي على تزييف حقائق الإسلام، ونشر الانحراف في العقائد والأخلاق والفكر، كما حرص على تثبيط عزيمة المسلم وتشكيكه في قدرته على التغيير... ومن هنا فلا بد من توجيه إسلامي شامل يطرح الإسلام بشكل شمولي، لا يهتم بالعقيدة فحسب بل يهتم بالأخلاق والأفكار والتصورات أيضاً. ولا يصف الواقع الفاسد فقط، بل يحدد الطريق إلى تغييره، ويرسّخ في نفس الفرد الثقة بقدرته على القيام بهذا التغيير.

ولا شك أننا لا نقدر على الاحتفاظ بالأمة بعيداً عن الإعلام الجاهلي الذي تصل آثاره إلى كل بيت وكل مخدع يأوى إليه الإنسان، إلا إذا قمنا بواجب الدعوة والبيان على صورته الصحيحة... صورة البلاغ المبين، أو التوجيه الإسلامي الشامل[9].

* * *

التربية الإسلامية الشاملة:

لا تستطيع أمة من الأمم أن تحمل رسالتها للعالم إلا إذا وصل أفرادها إلى قدر مشترك من الاتفاق والتوافق حول القضايا الأساسية لهذه الأمة.

والتربية - وحدها - هي القادرة على تكوين ذلك القدر المشترك من الاتفاق والتوافق بين أفراد الأمة، بل إن التربية هي التي تتحمل المسؤولية الكبيرة في بلورة رسالة الأمة، وفي غرس الولاء لتلك الرسالة... وفي إطار الولاء للرسالة تتلاحم الأمة وتترابط وتتماسك فتصبح كالكتل الصخرية التي تتحدى الأمواج العاتية...

والأمة الإسلامية تحمل رسالة عظيمة تعلن بها ميلاد الإنسان الجديد... الإنسان المتحرر المتطهر الكريم.

---

[9] لمزيد من الاطلاع راجع - إن شئت -:
- مشكلة الثقافة، مالك نبي، دار الفكر، دمشق.
- حصوننا مهددة من الداخل، محمد محمد حسين، المكتب الإسلامي.
- المعاصرة في إطار الأصالة، أنور الجندي، دار الصحوة، القاهرة.
- معالم في الطريق، سيد قطب، دار الشروق.

الإنسان الـذي لا إلـه لـه إلا اللـه، ولا معبـود لـه إلا اللـه، ولا حاكم له إلا الله.

ولكـن الكـثرة الكـاثرة مـن جمـاهير الأمـة الإسـلامية يجذبها ضغط الجاهلية المعاصرة إلـى الأرض، وتقـف أمـام واقع الأمة الإسلامية مستسلمة له، كما لو كان لا سبيل إلى تغييره، أو زحزحته أو التمرد عليه! وانقلب معنى الصبر في نفوس هذه الجماهير مـن الصـبر علـى مواجهـة التحـديات، ومقارعة الشر، إلى الصبر على المرض، والجهل، والفقــر، والظلم، والهزيمة، والتخلف. وانقلب معنى الزهد من زهــد الأغنياء والأقوياء بالثروة والجاه في سبيل الله، فصار عجــز الفقراء والقاعدين عن العمل والراضين بالضعف والهـوان. وانقلب معنى التوكل من الثبـات بعـد اسـتكمال الاسـتعداد والتخطيط فصار تبريراً للارتجالية والفوضى وعدم الإعداد!

ولا تسـتطيع الأمـة الإسـلامية حمـل رسـالتها للعـالم، وإخراج من شـاء اللـه، مـن عبـادة العبـاد إلـى عبـادة اللـه وحده... لا تستطيع ذلك إلا برجال من رجالها يبلغون دعــوة الله، ويؤدون أمانته، ويقـاتلون بمـن أطـاعهم مـن عصـاهم حتى يأتي الله بالفتح أو أمر من عنده؟!

ولا شك أن السبيل إلى بناء هذا الصـنف مـن الرجـال وإحياء الأمة هو التربية العميقة الهادئة المتدرجة التي تصل بها قضايا الإسلام إلـى القلـوب، فتسـتعلي بأصـحابها علـى الشــهوات والأهــواء، وتكــون حركتهــم طبقــاً لمــراد اللــه، فيصمدون في وجه كل قوى الباطل التي تستهدف الإسلام وأمة الإسلام.

ولكي تصل التربية الإسلامية إلـى أهـدافها مـن تربيـة الفرد وإحياء الأمة، لا بد لها من منهـاج تربـوي شـامل يسـد كل الثغور على فتنة الجاهلية... فيرابط علـى ثغـر التوحيـد ويدفع عنه شرك الأموات وشـرك الأحيـاء... ويرابـط علـى ثغر القيم فيفصل الأمة عن القيم الجاهلية، ويصـلها بـالقيم الإسلامية...

ويرابط على ثغر الأخلاق فيقــوم بــ الإعـداد الأخلاقـي الذي يضمن - إن شاء الله - اجتيـاح الإسـلام للجاهليـة فـي كل الأرض... ذلك الاجتياح الذي كان سبيله الأول - ولا يزال - التربية الربانية الشاملة... وإحياء الربانية[10].

[10] لمزيد من الاطلاع راجع - إن شئت -:
- منهج التربية الإسلامية، محمد قطب، دار الشروق.

الانطلاقة الرابعة إحياء الأمة... والحكم الإسلامي

دور الأمة في التغيير:

ربّى الإسلام هذه الأمة على أن مهمتها لا تنحصر في تحقيق كيانها الذاتي المحدود، وإنما لها هدف أُخْرِجت من أجله، ورسالة كُلفت بها هي الدعوة إلى دين الله الحق، وتعبيد البشر لله وحده... وحين بلغت الأمة الإسلامية الرُشد الحضاري، حملت رسالتها في الدعوة للخير بمعناه الواسع، والنهي عن المنكر بمعناه الواسع، وقامت بدورها في الشهادة على الناس والقيادة لهم، فحققت قول ربها عز وجل: {كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله}، وقوله سبحانه: {وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس، ويكون الرسول عليكم شهيدا}.

ولا شك أنه ما كان للأمة الإسلامية أن تقوم بدورها وتؤدي رسالتها كما أمرها ربها: {ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير}... إلا إذا كانت تتمتع بـ المناعة السياسية فلا تصبر على ظلم الملوك، ولا تقبل استبداد الرؤساء... بل تدرك أن لها دوراً في ترشيد الحكم الإسلامي، والرقابة على أعمال الحاكم المسلم، وردّه إلى الحق الرباني، وعدم الرضا منه بمخالفة ما أنزل الله.

ولقد كانت الأمة في العصور الأولى للحكم الإسلامي تراقب حكّامها، وتلاحق أي انحراف في أوضاع الحكم، وتُقيّد طاعتها للحكام بمدى تقيّد هؤلاء الحكام بطاعة الله، فكان ميثاق الحاكم: أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم. وكان تعليقه على منتقديه: لا خير فيكم إن لم تقولولها، ولا خير فينا إذا لم نسمعها!

- اللمسة الإنسانية، محمد محمد بدري، دار الصفوة، القاهرة.
- مدارج السالكين، ابن القيم الجوزية، دار الحديث، القاهرة.
- مقومات الشخصية المسلمة، ماجد عرسان الكيلاني.
- طريق البناء التربوي الإسلامي، عجيل النشمي، دار الدعوة الكويت، دار الوفاء، مصر.

ولكن الأمة الإسلامية لم تبق على هذا المستوى السامق من حيث ترشيد الحكم داخلها، وحمل رسالتها إلى البشرية... فقد طال عليها الأمد، فأصبحت لا تتأثر بحقائق الواقع ولا تتحرك لتغييره، وبدأ التخلي التدريجي من مجموع الأمة من مراقبة أعمال الحكام، وانصرافها التدريجي إلى أمورها الخاصة... حتى وصلت الأمة الإسلامية إلى الضياع والذل والهوان والهبوط المسف، الذي لا تكاد تدانيه أمة في الواقع المعاصر!

إن النظام الإسلامي هو النظام الذي يسمح بمشاركة الأمة في التغيير وفي الحكم، ويعد مبدأ الشورى أصلاً من أصول هذا النظام، ولذلك يختلف هذا النظام اختلافاً كلياً وجذرياً مع كل النظم الاستبدادية التي يكون الحكم فيها فردياً تستقر فيه سلطة الأمر والنهي بين يديّ حاكم فرد، ويغيب فيه دور الأمة في التغيير والحكم.

إن الاستبداد السياسي الذي هو قرين كل نظام سلطوي لا يتحقق بمجرد تسلط فرد أو حزب أو طبقة على الأمة، وإنما هو في الحقيقة ينشأ في رحم الأمة عبر أخلاقيات الضعف والخوف، وممارسات الانعزال في دائرة الهموم الفردية، وبفعل ما يسرى في الأنفس من استعداد للخضوع وقبول للاستعباد، ومن ثم فإن أخطر ما يتهدد أمة ما ليس تسلط المستبدين عليها، بل قابلية أفرادها للاستبداد...

إن الطلائع المؤمنة ليست بديلة عن جماهير الأمة، ولكنها ذراع هذه الجماهير، وقلبها النابض، وعقلها المفكّر... وهي ترى أهداف الإسلام وتسلك السبيل القاصد إلى تحقيقها في واقع الأمة، ولكنها في ذات الوقت لا تغفل عن دور الأمة في الوصول إلى هذه الأهداف، وتدرك أن الأمة لا بد أن تكون حاضرة وشاهدة في ساحة المواجهة مع أعداء الإسلام[11].

---

[11] لمزيد من الاطلاع راجع - إن شئت -:
- الجهاد في سبيل الله، أبو الأعلى المودودي، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- في فقة التدين، عبد المجيد النجار - قطر.
- واقعنا المعاصر، محمد قطب، دار الشروق.
- أطلس تاريخ العالم الإسلامي، حسين مؤنس، دار الزهراء للإعلام العربي، القاهرة.
- لماذا أعدموني، سيد قطب، الشركة السعودية للأبحاث والتسويق.

* * *

الصفوة في قلب الجماهير:

لا شك أن أخوف ما يخافه خصوم الإسلام، أن تمتد للحركة الإسلامية جذور في أوساط الأمة، وأن ينشأ لها في قواعدها تأييد أو تعاطف، ولذلك كانت خططهم دائماً تهدف إلى محاولة فصل الحركة الإسلامية عن جماهير الأمة، فإذا استجابت الحركة الإسلامية لهذه الخُدعة، وصنعت هوة بينها وبين جماهير الأمة تحت أي دعوى، فقد انفصلت عن أرضها وقاعدتها، وبدأت طريق الانتحار العاجل أو الآجل!

إن الحركة الإسلامية الطليعية تعيش في قلب جماهير الأمة، وتعمل على هدايتهم. وتحاول إصلاحهم، وهي في ذات الوقت لا تمالئهم ولا تذوب في شهواتهم... فهي تدرك أن من يعتزل الناس لأنه يحس أنه أطهر منهم روحاً، وأطيب منهم قلباً، أو أرحب منهم نفساً، أو أذكى منهم عقلاً... لا يكون قد صنع شيئاً كبيراً... لقد اختار لنفسه أيسر السبل وأقلها مؤونة... بل العظمة الحقيقية أن يخالط هؤلاء الناس وهو مشبع بروح السماحة والعطف على ضعفهم ونقصهم وخطئهم، وروح الرغبة الحقيقية في تطهيرهم وتثقيفهم ورفعهم إلى مستواه بقدر ما يستطيع...

وليس معنى هذا أن يتخلى المسلم عن آفاقه العليا ومثله السامية، أو أن يتملق هؤلاء الناس ويثني على رزائلهم، أو أن يشعرهم أنه أعلى منهم أفقاً، بل لا بد من التوفيق بين هذه المتناقضات وسعة الصدر لما يتطلبه هذا التوفيق من جهد.

ولا شك أن حركات البعث الإسلامي لا تستطيع الوصول إلى هذه الأهداف طالما هي حركة معزولة عن جسم الأمة، بل لا بد أن تكون الأمة هي التي تجاهد في سبيل هذه الأهداف، وهي التي تواجه أعداء الإسلام، فالمعركة ليست معركة هذه الجماعة ولا تلك، إنما هي معركة الأمة جميعاً مع أعدائها جميعاً... فالخصومة قائمة أصلاً بين أعداء الله وبين الإسلام، حيثما كان الأعداء... وحيثما كان الإسلام...

ولكي تصل الحركة الإسلامية إلى تجنيد الأمة لا بد لها أن تقوم بترتيب أولويات العمل الإسلامي، ومراعاة هذا الترتيب في دعوة الناس، وفي تنظيم مراحل الهدم للواقع الفاسد، والبناء للواقع الإسلامي الصالح، ولا بد أن يظهر ذلك في كل ما تتبناه الحركة من أفكار، ومنهاج للتربية، وأسلوب للحركة...

فأما الأفكار التي تنشرها الحركة الإسلامية فلا بد أن تكون ملكاً للأمة، وليست حكراً على النخبة أوالصفوة، ولا بد أن تكون باللغة التي تفهمها الجماهير، وفي ذات الوقت تكون أفكار الحركة الإسلامية أفكاراً ريادية تحل مشكلات الواقع، وترسم خطة المستقبل الأفضل...

وأما منهاج التربية، فإنه يقوم أساساً على روح الائتلاف مع الأمة، والارتباط بجذورها الشعبية، وعدم العزلة عنها أو مفارقة طوائفها...

وأما أسلوب التحرك الذي تسير وِفْقه الحركة الإسلامية، فهو إقامة شبكة متكاملة من العلاقات والروابط، ومد جسور التواصل مع مختلف طبقات الأمة[12].

* * *

إخراج الأمة المسلمة:

يعلق الكثير من الإسلاميين آمالهم بـ القائد الوحيد الذي يظنون أن بيده تغيير واقع الأمة الإسلامية والانتقال بها من مؤخرة القافلة البشرية إلى قيادتها! وتعتمد أكثر الحركات الإسلامية على كفاءات الفرد القائد وقدراته الشخصية، ولذلك يكون غياب هذا القائد سبباً في اندثار تلك الحركات، أو على أقل تقدير تحول اتجاهها؟!

ولا شك أن للقائد أهمية كبيرة في التغيير، ولكنه ليس كل القضية، وإنما هو شطرالقضية، وشطرها الآخر هو وجود الأمة، ولا بد من شروط في القائد وشروط في

---

[12] لمزيد من الاطلاع راجع - إن شئت -:
- المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري، محمد محسن عبد المجيد، قطر.
- أفراح الروح، سيد قطب، دار ابن القيم، الكويت.
- مفاهيم ينبغي أن تصحح، محمد قطب، دار الشروق.

الأمة، والتفاعل بينهما، لكي يتم التغيير وفق سنة الله الجارية: {إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم}... تلك السنة التي تربط التغيير بتغيير ما بـ قوم أي أمة، وليس ما بـ فرد أو قائد.

إن الحركات الإسلامية ينبغي أن تدرك أنها لن تصل إلى شيء من أهدافها - وهدفها هو تطبيق الإسلام في دنيا الواقع، وتحكيم الشريعة الربانية - طالما أنها معزولة عن جسم الأمة... بل لا بد أن تكون الأمة هي التي تجاهد لكي يقوم حكم الله ولكي يستمر في الوجود بعد ذلك، ولذلك فإن كل صدام مع السلطة لإقامة الحكم الإسلامي - قبل وجود الأمة - هو في الحقيقة عبث غير مبني على بصيرة ولا تدبر...

بل هو يصادم سنة الله في التمكين والاستخلاف في الأرض، والتي لا يمكن أن يتغير نظامها ويتبدل بمجرد فرد صالح أو أفراد صالحين مشتتين في الدنيا، ولو كانوا في ذات أنفسهم أولياء لله تعالى، لأن الله لم يقطع ما قطع من الوعد والتمكين لأفراد مشتتين، وإنما لجماعة منسقة متمتعة بحسن الإدارة والنظام قد أثبتت نفسها فعلاً أمة وسطاً، أو خير أمة في الأرض.

والأمة ليست أكواماً بشرية، وإنما هي نسيج اجتماعي، تحكمه قوانين بناء الأمم، وصحتها، ومرضها، وموتها، وتتلاحم مكونات الأمة، وتعمل متكاملة بحيث يكون حصيلة هذا كله إخراج الأمة المسلمة، وقيامها بوظائفها، طبقاً لحاجات الزمان والمكان.

فالأمة كيان صناعي يمكن بناؤه وهدمه وهي تُخْرَج إخراجاً للقيام برسالة ووظيفة ما، وهذا الإخراج يقتضي فهم السنن والقوانين التى توجه إلى إخراج الأمة، وتحافظ على عافيتها، ثم تحويل هذه القوانين إلى تطبيقات عملية في أفكار أفراد الأمة وفي أخلاقهم، ومن قبل ذلك ومن بعده في شبكة العلاقات الاجتماعية التي تربط هؤلاء الأفراد، وتوجه نشاطاتهم في اتجاه رسالة الأمة.

إن الأمة هي الرادع والمانع لكل منحرف ولكل انحراف، فهي التي تقف مع الحق ضد الباطل، وهي التي تكف أيديها وتمتنع عن مشاركة الظالمين، بل وتأخذ عن أيديهم للحق، ولذلك فإن الطريق إلى إقامة الحكم الإسلامي هو إخراج الأمة المسلمة... وذلك بدعوة الأمة

إلى التوحيد، وملء الفـراغ العقيـدي فـي الأمـة، ثـم إحيـاء ألهوية الإسلامية التي تستقطب أفراد الأمـة، وتُخْـرج منهـم أمة ذات ولاء ثابت، وهوية وشخصية متميزة... وهذه الأمــة بتلك الموصفات هي التي تستطيع مواجهة أعـدائها، وتقـدر علـى أن تجـرف فـي طريقهـا الأنظمـة العلمانيـة الورقيـة وتلقي بها في مزابل التاريخ.

إن إحياء الأمة هو الذي يجعل للحركة الإسـلامية قـوة الضغط على الباطل والجاهلية، حتى تُسَلّم هـذا الباطـل أو يزول: {ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً}.

فـإذا أردنـا للأنظمـة العلمانيـة التلاشـي، وإذا أرادت الحركة الإسلامية لـ الخندق العلماني الاندثار، فإن الطريـق إلى ذلك هو الإحياء الإسلامي الكبير الذي ينساب في خلايـا المجتمع ويسري في روح هذه الأمة فيحييها بالقرآن[13].

الانطلاقة الخامسة الطليعة المؤمنة... وقيادة الأمة

فقهاء لا خطباء:

حين نجحت الدعوة الإسلامية في إقامة الدولة، كانت هـذه الدولـة دولـة الفكـرة وتـولى قيادتهـا أولـو الألبـاب والفقهاء الذين أحسنوا استعمال قدرات الأمـة ودفعـوا بهـا إلى التمكين والنصر، فأصـبحت هـي أمـة الريـادة البشـرية التي بسطت جناح رحمتها على المجتمع البشري كله.

وهكذا هي كل أمة يتولى زمام أمورها فقهاء يفقهـون قوانين بناء المجتمعـات ويحسـنون تطـبيق هـذه القـوانين، فتتقدم أممهم وتنتصر، أمّا الأمة التي يتـولى زمـام أمورهـا خطباء يحسنون التلاعب بالمشاعر والعواطف، فإنهـا تظـل تتلهـى بــ الأمـاني الـتي يحرّكهـا هـؤلاء الخطبـاء، حـتى إذا

---

[13] لمزيد من الاطلاع راجع - إن شئت -:
- أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق، أحمد كنعان، كتـاب الأمة.
- إخراج الأمة المسلمة، ماجد عرسان الكيلاني، كتاب الأمة.
- الجهاد الأفغاني ودلالاته، محمد قطب، مؤسسة المدينة، جدة.

جابهت التحديات لم يفقهوا ما يصنعون، وآل أمرهم إلى الفشل وأحلوا قومهم دار البوار.

إن النوايا الطيبة لا تكفي في الوصول إلى الأهداف، بل لابد من الصواب وهو العمل المدروس المخطط له سلفاً الذي تؤخذ فيه كل الاستعدادات بدءاً من العلم الشرعي وانتهاء بالاستعداد المادي.

لذا فلا بد أن يقوم بالبعث الإسلامي فقهاء لهم من علو الهمة، ونبل النفس، وإنكار الذات، ما يدفعهم إلى الاهتمام بأمور المسلمين، وتَبنّي هموم الأمة.

فقهاء يخططون للعمل الإسلامي آخذين في اعتبارهم الاستهداء بنور القرآن والسنة دون إهمال الأسباب المادية، حتى لا تسقط ثمرات العمل الإسلامي قبل نضجها.

فقهاء يدركون أن القوة ليست بالحماس والانفعال، ولكن بالسعي الدائب للوصول إلى الأهداف، والتخطيط لذلك، وضبط النفس أمام التحديات الخارجية التي تحاول الانحراف بالحركة الإسلامية عن خطتها من خلال الضغوط التي تمارسها ضدها من تشريد وقتل، لتخرجها عن توازنها، وتستدرجها إلى الصدام مع أعدائها قبل الإعداد له.

فقهاء يحاولون الوصول إلى أهداف الحركة الإسلامية بتوازن يحكم إحجامهم كما يحكم إقدامهم، فهم لا يستسلمون لزهو البطولة الانفعالي الذي يدفع الإنسان إلى اتخاذ المواقف من خلال سياسة اللحظة السريعة، وليس من خلال سياسة النفس الطويل.

فقهاء يدركون ما في أيدهم فلا تختلط عندهم الأمنيات بـ الإمكانيات، وهم يبذلون الجهد لتحسين الإمكانيات، وإحداث التكامل بين جهود أفراد الأمة، والحفاظ على طاقاتهم من الإهدار.

فقهاء يوقنون أن القيادة الحقيقية هي قيادة القلوب، وليس قيادة الأبدان... قيادة الرضا وليست قيادة الضغط... قيادة التسليم وليست قيادة الإرهاب.

لقد عانت الأمة الإسلامية من التخلف، وأصبحت تزحف وراء غبار الركب البشري مع الزاحفين

المنقطعين... وكان من أهم الأسباب التي بالأمة إلى هذا الواقع الأليم، أن الذين يتولون زمام الأمور فيها هم من الخطباء الذين لا يحسنون في مواجهة تحديات الأمة وأزماتها إلا الخطب النارية!

ولذلك فإنه لا سبيل إلى إحياء الأمة الإسلامية، وقيامها بدورها الحضاري، إلا أن يتولى قيادة الأمة الفقهاء الذين يتصفون بصفات المؤمنين والشهداء ويتحركون على أساس من الوعي بقيم الوحي قرآناً وسنة مع الدراية بشؤون الواقع... ويقومون بحشد طاقات الأمة، وتوحيد صفوفها، والاستفادة من جهود أفرادها في سبيل الوصول إلى الأهداف عبر رحلة التغيير[14].

* * *

صفوة العلم والوعي:

لكي تقوم الحركة الإسلامية بمهامها، لا بد لها من صفوة من العلماء المخلصين والقادة القادرين الذين يتميزون بالعلم والوعي الشمولي، وتتوافر فيهم ملامح العمل القيادي. ذلك أن هذه الصفوة هي القوة الحقيقية التي تضمن الاستمرار والصمود، وتعطي الصورة الواضحة والنموذج المتكامل للأمة المسلمة.

إن الفوارق بين الأمم هي فوارق نوعية لا كمية، وأعداء الأمة الإسلامية إنما يواجهونها بنوعية مختارة من الأفراد وليس بـ كثافة كمية من البشر، ولذلك فإن الأمة الإسلامية إذا أرادت مواجهة هؤلاء الأعداء فلا بد أن تعلم أن القوة الحقيقية ليست في التعاظم بـ الكم، بل هي في

---

[14] لمزيد من الاطلاع راجع - إن شئت -:
- منهاج التغيير الإسلامي، أبو الأعلى المودودي.
- لمحات في فن القيادة، ج. كورتوا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- حركة النفس الذكية، محمد العبدة، دار الأرقم الكويت.
- مسائل في العمل الإسلامي، محمد وليد سليمان، دار الجيل، بيروت.
- هكذا ظهر جيل صلاح الدين، وهكذا عادت القدس، ماجد الكيلاني، الدار السعودية للنشر والتوزيع.

الصفوة المتميزة نوعياً والقادرة على توجيه طاقات الأمة نحو الأهداف المنشودة.

وإذن فالصفوة المؤهلة للقيام بقيادة الأمة في مهمة التغيير الكبرى لا بد أن تتميز بإخلاصها وتجردها... بعلمها واختصاصها ووعيها وتجربتها ومواكبتها لتطورات عالمها وعصرها... بموضوعيتها ومنهجيتها ودقتها وجديتها وصبرها... بشجاعتها الكبيرة في رؤية الحقائق واستخلاص النتائج والجهر بما وصلت إليه مهما كان في ذلك من الآلام... بشعورها بمسؤوليتها، والتزامها بما تبين لها من الحق والمصلحة والسبيل الموصل، والوقوف معه بالقلم واللسان، والعمل الدائب على كل صعيد...

إن الطريق إلى بناء الصفوة الواعية، لا يمكن أن يكون هو العزلة والسلبية والهروب من التبعات، بل لا بد من العمل الإيجابي، والارتفاع إلى أعلى المستويات في معرفة الواقع ودراسة متغيراته للاستفادة منها في رسم الخطط والاستراتيجيات في عملية التغيير... مسترشدين في ذلك بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "رحم الله من حفظ لسانه، وعرف زمانه، واستقامت طريقته".

والحركة الإسلامية التي تسعى لإحياء الأمة، وإخراجها من التبعية إلى الريادة لا بد لها من مواجهة مع الأنظمة العلمانية التي تمثل العقبة الكبرى في طريق تقدم الأمة وخروجها من التبعية الذليلة، ولذلك فإنه من الضروري لـ صفوة الحركة الإسلامية أن تنفذ إلى طبيعة وبنية النظام السياسي الذي يوجّه النخب الحاكمة في هذه الأنظمة، والإطار الأيدلوجي العقدي الذي يكيّف انحيازات هذه النخب في الخارج، والنسق القيّمي الذي يدفعها إلى اتخاذ القرارات والسياسات في الداخل!

ولأن هذه الأنظمة العلمانية ليست في حقيقتها إلا واجهة للاستعمار الغربي، فإنه من الضروري لاستكمال وعي الصفوة المؤمنة، من دراسة المجتمعات الغربية للتعرف على الأصول الثقافية والاجتماعية المُوَجهة لسياسات هذه المجتمعات وعلاقاتها مع غيرها من المجتمعات...

وهكذا تتحرك الصفوة المؤمنة من خلال العلم والوعي والرؤية المنهجية العميقة للماضي والحاضر والمستقبل، والأهداف الموضوعية القريبة والبعيدة،

وتحاول أن ترسم في ضوء ذلك الطريق القاصد المُوَصّل إلى هذه الأهداف.

إن الصفوة المؤمنة التي تملك الإرادة والفاعلية، تتدرج في نموها النظري والحركي، فتبدأ كبذرة حق في قلوب طليعة مؤمنة، ثم تتحول البذرة إلى نبتة خير في صورة صفوة مؤمنة، فتستند هذه الصفوة إلى الكوادر الواعية، فتقوى وتستقل، وتظهر في صورة شامخة تمتد جذورها في قلب الأمة، وترتفع فروعها قوية متماسكة، وقادرة على مواجهة كل أعدائها... {كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه، يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار}.

إن الأمة الإسلامية في حاجة إلى صفوة من الرجال ذوي إرادة وفعالية، يحسّون مأساة الأمة، فيقومون بالسعي الجاد من أجل التغيير واقعها، وتكون خطوتهم الأولى هي الانتقال من حالة الحس إلى حالة الوعي بأسباب واقع الأمة والطريق إلى إخراجها من هذا الواقع...

حتى إذا وضعوا أيديهم على جذور هذا الواقع وحددوا أهدافهم بدقة، بدأوا في تغيير هذا الواقع من الجذور، وتوظيف حركة الجماهير لخوض الصراع الحقيقي والمصيري مع الأنظمة العلمانية، والجهاد لاقتلاع جذور الطواغيت وقيادة الأمة الإسلامية، بل وقيادة البشرية كلها إلى خيري الدنيا والآخرة[15].

* * *

روح الفريق والمبادرات الذاتية:

الأفراد هم العنصر الأول في بناء أية أمة، والصلات بين هؤلاء الأفراد هي الشرط الأول لقيام الأمة برسالتها وتقديم العطاء الحضاري للأمم الأخرى، ولا يستطيع الأفراد ك أفراد تقديم أيّ عطاء حضاري أو حمل أية رسالة، إلا حين يتمتعون بروح الجماعة ويعملون بروح الفريق... فروح الفريق هي الدعامة الأساسية في حمل رسالة الأمة،

---

[15] لمزيد من الاطلاع راجع - إن شئت -:
- مقومات الشخصية المسلمة، ماجد عرسان الكيلاني، كتاب الأمة.
- من بقايا الأيام، عصام العطار، الدار الإسلامية للإعلان، بون.
- واقعنا المعاصر، محمد قطب، دار الشروق.

والعمل الجماعي هو أهم ضمانات النجاح وتحقيق الأهداف... والأمة التي تسير خطوات أفرادها بروح الفريق والجماعة، هي الأمة الجديرة بالريادة البشرية.

إن التربية المطلوبة - لتنشئة المسلمين عموماً فضلاً عن الجيل الذي يقع عليه عبء المواجهة الأولى مع الجاهلية - ينبغي أن توزان بين الروح الفردية والروح الجماعية عند أفراد الجماعة، فلا تحليهم أصفاراً عن طريق تنمية الروح الجماعية على حساب الروح الفردية، ولا تنمي فيهم الفردية الجانحة فيعتز كل منهم بفكره وبذاته وبتقييمه الخاص للأمور، فلا تأتلف منهم جماعة، ولا يلتئم لهم تجمع له وزن.

فلا تستطيع أمة من الأمم أن تحقق أقصى فعالية في الداخل والخارج إلا إذا كان النظام الجماعي هو الذي يُسير خطوات أفرادها، ذلك أن العمل الجماعي هو الذي يجعل كل فرد في الأمة يضاف إلى الآخر إضافة كيفية وليس إضافة كمية وبالتالي فهو الطريق إلى القوة الاجتماعية التي يتحول فيها الأفراد إلى كيان تتوحد فيه الأفكار والمشاعر والممارسات العملية من أجل تحقيق رسالة الأمة.

ومن هنا، فإن واجب الحركة الإسلامية أن تبدأ مسيرة التعاون من أجل بناء الأمة الإسلامية القوية التي تستطيع أن تواجه كل أعدائها، وتؤدي رسالتها الحضارية التي لا يمكن أن يقوم بها أفراد، وإنما يقوم بها مجموعات متعاونة تعمل حسب خطة تكاملية مدروسة، وتتحرك بتوازن دقيق بين الروح الجماعية والروح الفردية فتقيم استراتيجيتها على أساس من روح الفريق والمبادرات الذاتية[16].

طليعة المجتمع الحي:

الفكرة الصحيحة هي القاعدة التي يقوم عليها المجتمع الحّي، والولاء الشامل لهذه الفكرة هو الأساس الذي يقوم عليه شبكة العلاقات الاجتماعية بين أفراد ذلك المجتمع، فإذا انهارت الفكرة الصحيحة، وقامت شبكة

[16] لمزيد من الاطلاع راجع - إن شئت -:
- ميلاد مجتمع، مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق.
- التخطيط، فرناس عبد الباسط النبا.
- هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، ماجد عرسان الكيلاني، الدار السعودية للنشر والتوزيع.

العلاقات الاجتماعية بين الأفراد طبقاً لمحاور الولاء الفردي والعشائري والأقليمي، دار الصراع في داخل المجتمع نفسه ومزّقه إلى شيع يذيق بعضها بأس بعض... ومن ثم ضعف المجتمع في الداخل، وفقد المناعة في الخارج، بل وتحول إلى مجتمع ميّت يطمع فيه الآخرون، وتتداعى عليه الأمم.

ولكي ينشأ هذا المجتمع الحّي، لا بد من طليعة مؤمنة قادرة على أن توفر للمجتمع الإسلامي تكاملية جهود أفراده، في سبيل تقدم الأمة الإسلامية، بدلاً من إهدارها في الصرعات الإقليمية والاجتماعية...

ولا تستطيع الطليعة المؤمنة القيام بدورها في إحياء المجتمع الإسلامي، إلا إذا شكّلت في نفسها وفي واقعها نواة هذا المجتمع في صورة أفراد مسلمين خاضعين لتصورات وقيم ومفاهيم ومشاعر وتقاليد وعادات المجتمع الإسلامي الحّي، وفي ذات الوقت لا بد أن يكون بين أفراد هذه النواة الاجتماعية تفاعل وتكامل وتناسق وولاء وتعاون عضوي، يجعل كل فرد يتحرك للمحافظة على مجتمعه، والدفاع عن كيانه والقضاء على عناصر الخطر التي تهدد وجوده في أية صورة من صور التهديد.

وهكذا هي نشأة المجتمع الإسلامي الحّي، تبدأ بنواة اجتماعية صغيرة تتسم بالحيوية والفاعلية والقدرة على الجذب والاستقطاب، وتتحرك هذه النواة في صورة نبتة اجتماعية متماسكة، فتجذب الأفراد الأكثر نشاطاً وتقوى وفداء بين أفراد المجتمع الكبير الميت الذي يحمل بين طياته عوامل فنائه من العفن الخلقي والشقاء المعيشي، ولا يملك القدرة على التحدي والمواجهة. فإذا تجمّع حول النواة الاجتماعية صفوة الفكر والتجارب وخيرة القدرات والإمكانات، تحولت النواة الاجماعية الصغيرة إلى قوة هائلة تمتلك اتخاذ القرارات الحاسمة، وتمتلك القدرة على تحدي أعدائها، وعندها يتهاوى شيئاً فشيئاً ذلك المجتمع الميّت في تيار المجتمع الإسلامي الحي، ويكون الانبعاث الإسلامي.

ولكي تستطيع الأمة الإسلامية حمل رسالتها إلى الإنسانية بالخروج من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، لا بد أن يكون المجتمع الإسلامي مجتمعاً حياً، يقوم على الفكرة الصحيحة، وتوجه القيم السليمة والعمل الصالح علاقات أفراده وجماعاته وتحكم سلوكهم ونشاطاتهم.

ولا سبيل إلى نشأة هـذا المجتمـع الحّـي إلا أن توجـد فـي الأمـة طليعـة مؤمنـة تمثـل النـواة الاجتماعيـة الحيـة للمجتمع الإسلامي المنشود، فإذا وجدت هذه النـواة، فإنهـا لا تلبـث بحيويتهـا ونشـاطها أن تكـبر حـتى تحطـم الطغـاة وتفرض نفسها على الساحة الاجتماعية للأمة، وتكـون هـذه هي بداية الانبعاث الإسلامي.

ومن هنا فإن قيادة الطليعة المؤمنة للأمـة الإسـلامية هـو أمـر تشـترطه أسـس التغييـر، وتسـتدعيه متطلبـات التمكين[17].

الانطلاقة السادسة الفاعلية الإسلامية... والريادة البشرية

[17] لمزيد من الاطلاع راجع - إن شئت -:
- معالم في الطريق، سيد قطب، دار الشروق.
- الإسلام ومشكلات الحضارة، سيد قطب، دار الشروق.
- واجهة العالم الإسلامي، مالك بن بني، دارالفكر، دمشق.

في الصّراع الحضاري:

لا يمكن أن نتحدث عن التقدم والتخلف والحضارة... وغيرها، دون أن نحدد المعايير الأساسية التي نستند إليها في توصيفنا لما هو تقدم... وتقديرنا ما هو التخلف؟ ومعرفتنا ماذا تعني الحضارة؟... ذلك أن الإجابة الصحيحة عن هذه الأسئلة هي التي تحدد الأرض التي نقف عليها ونحن نقدم الحلول لمشاكل الأمة الإسلامية، ونرسم الطريق الواضح لعودتها إلى قيادة البشرية من جديد...

إن مفهوم الحضارة في الإسلام مفهوم يشمل العقيدة والقيم والأخلاق والنظم والتنظيمات والأفكار والنشاط المعمر في الأرض... وليست هي كل تقدم صناعي أو اقتصادي أو علمي مع تخلف القيم عنها.

ولذلك فإن الحضارة الإسلامية يمكن أن تتخذ أشكالاً متنوعة في تركيبها الماديّ والتشكيلي، ولكن الأصول والقيم التي تقوم عليها ثابتة، لأنها هي مقومات هذه الحضارة: العبودية لله وحده، وسيادة القيم الإنسانية التي تنمي إنسانية الإنسان لا حيوانيته... وحرمة الأسرة، والخلافة في الأرض على عهد الله وشرطه... وتحكيم منهج الله وشريعته وحدها في شؤون الخلافة.

ويجب على الأمة الإسلامية أن تدرك أن الذين يتحكّمون فينا ليمنعونا من تطبيق شريعتنا هم أنفسهم الذي يتحكمون فينا ليبقى اقتصادنا عالةً عليهم، ولا يستقل عنهم، ولا يستغنى عن تدخلهم، ولا يصل إلى حد الاكتفاء.

إن الأرض التي انتشر فيها الإسلام - بقدر من الله - هي بفضل الله أغنى بقعة في الأرض، بثرواتها البشرية والمعدنية والمائية، وكل أنواع الطاقات، ولكن أهلها اليوم هم أفقر سكان الأرض، وأشدهم جوعاً ومرضاً وتخلفاً! ولو كانت هذه الثروات والطاقات ملكاً حقيقياً لأهلها لكانوا أغنى سكان الأرض... فمن الذي يمنعهم من امتلاكها والتصرف الحر فيها؟ هم ذات الأعداء الذين يمنعونهم من تطبيق شريعتهم.

إن الأمة الإسلامية يُرَاد لها أن تبقى عاجزة عن الاستفادة من الخامات الموجودة في أرضها عجزاً تاماً وكاملاً... ويُراد لها أن تبقى عاجزة عن حماية نفسها عجزاً تاماً وكاملاً، ولذلك فإن المخططات الصهيونية والصليبية

الاستعمارية تضع في مقدمة أهدافها تدمير الأمة الإسلامية، من ناحية العنصر البشري بإشاعة الانحلال العقيدي والخلقي... ومن ناحية تدمير الاقتصاد... وأخيراً من ناحية التدمير العسكري.

إن الصراع القائم بين الأمة الإسلامية، والجاهلية المتعددة الأسماء، هو صراع ذو أبعاد مختلفة... ثقافية واجتماعية واقتصادية وسياسية وعسكرية... وبالتالي فهو صراع حضاري شامل لا يختص بجانب من جوانب الحياة دون جانب آخر. وهذا الصراع الشامل ذو الأبعاد المتعددة لا يمكن كسبه إلا بتكثيف الجهود وتركيزها... فإذا أرادت الأمة الإسلامية مقاومة الحضارة الغربية، فإن هذا يستدعي أن تقوم بتأسيس حضارة إسلامية متكاملة الأبعاد، وتقوم بتجميع عناصر القوة في الأمة، وتوجهها إلى ما ينفع الناس، ويؤَمّن خطى الأمة على طريق المستقبل، ويثّبت أقدامها في الصراع الحضاري.

والحضارة في المفهوم الإسلامي: هي عمارة الأرض بمقتضى المنهاج الرباني. وطبقاً لهذا المفهوم الإسلامي للحضارة، فإن واقع الأمة الإسلامية يشهد أنها تعاني من التخلف والتدهور الحضاري الفظيع... وأن الفجوة الحضارية بينها وبين العالم المتقدم تزداد كل يوم.

ولا شك أن الأمة الإسلامية إذا أردات النهوض واللحاق بركب الحضارة. بل وسبقه، فإنه لا بد لها أن تستعيد ثقتها في نفسها، وتحافظ على ريادتها واستقلالها، وتدرك ما لديها من طاقات وقوى ذاتية فتستخدمها في بناء حضارتها، ولا تضيعها في الفراغ أو تتركها لأعدائها يستخدمونها في إذلالها والتحكم فيها... فإذا فعلت الأمة ذلك فإنها تكون قد ملكت العوامل المادية التي يمتلكها الآخرون... وتبقى الأمة الإسلامية متميزة بملكية السلاح الذي لا تملكه الأمم الأخرى، وهو المنهاج الرباني... فيكون لها السبق الحضاري على كل الأمم، وتعود إلى قيادة البشرية من جديد[18].

الفاعلية طريق الحضارية:

[18] لمزيد من الاطلاع راجع - إن شئت -:
- في ظلال القرآن، تفسير سورة الأنعام، سيد قطب، دار الشروق.
- حول تطبيق الشريعة، محمد قطب، مكتبة السنة، القاهرة.
- تأملات، مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق.
- حتى يغيروا ما بأنفسهم، جودت سعيد، دار الفكر.

الإنسان - في أيه أمة - هو أساس الحضارة وصعود أو هبوط أمة ما يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمدى فاعلية الإنسان، فإذا اتسم سلوك الإنسان - في أية أمة - بالفاعلية، كان النهوض الحضاري لهذه الأمة... أما إذا انعدمت فاعلية الإنسان، وتوارى جهده فإن مستقبل هذه الأمة لا يحمل لها إلا التخلف والانحطاط الحضاري.

ولقد كان الإنسان في الأمة الإسلامية هو مدار الحركة الحضارية، وتمثّل حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام والأجيال الأولى من المسلمين هذه الحقيقة تمثيلاً واضحاً وقيام رسول الله بدعوته واستعماله الطاقات الإنسانية التي زود بها واتباعه كل الوسائل والقواعد في عالم العمران المادي والبشر لنشر دعوته وتحقيق المجتمع الذي أرسل من أجل بنائه، وتحمل أنواع العذاب والجراحات، للانتصار على الأعداء في كل مظهر من مظاهر جهاده ضدهم... كل ذلك دليل على ما نقول.

إن الدراسة الواعية لحياة رسول الله صلى الله عليه وسلم تعطينا البرهان القاطع على أنه ما من قانون من قوانين الحياة خلقه الله لأداء الأمانة والاستخلاف، إلا اتبعه لبناء المجتمع الإسلامي، سواء أكان ذلك في حياته الفردية أم في حياته الاجتماعية، وسواء كان ذلك في سلمه أم في حربه.

إن منهاج الله الذي أنزله على رسوله، الذي هو منهاج للحياة البشرية؛ إنما يتم تحقيقه في حياة البشر بجهد البشر أنفسهم في حدود طاقاتهم البشرية، وفي حدود الواقع المادي للحياة الإنسانية في كل بيئة، ويبدأ العمل من النقطة التي يكون البشر عندها حينما يتسلم مقاليدهم. ويسير بهم إلى نهاية الطريق في حدود طاقاتهم البشرية، وبقدر ما يبذلونه من هذه الطاقة، وليس بطريقة سحرية غامضة الأسباب.

إن الأفكار تبقى ميتة حتى لو كانت صادقة وصحيحة حين لا تكون ذات فاعلية في إطار زمني محدد، والأشياء تصبح باهتة ومجرد أكداس إذ لم تكن متأتية عن حركة الحضارة ومتسقة مع وظيفتها، والأشخاص يتحولون إلى البدواة وعدم التحضر عند فقدهم للروابط التي تفسر اجتماعهم وعملهم المشترك في سبيل أهدافهم الحضارية...

إن التقدم أو التخلف لا يعتمد على الأفكار الصحيحة فقط، وإنما يعتمد أيضاً على أسلوب الحياة الذي ينتهجه أفراد الأمة في سبيل تحقيق أهدافها!

والإنسان هو أساس الحضارة، ولذلك يؤكد منهج التغيير الحضاري الإسلامي على صياغة الإنسان المسلم من جديد قبل بناء العمارات وإنشاء المصانع وتعبيد الطرق وتنظيم الحياة المادية، أو معها على الأقل... بينما تركّز الأيدلوجية العلمانية على نقل التكنولوجيا.

ولا شك أن الواقع خير شاهد على أن هذه الأيدلوجية العلمانية لم تفشل في ردم الهوة الحضارية بين الأمة الإسلامية وغيرها من الأمم فقط... بل إنها ساهمت في زيادة اتساع هذه الهوة. لأنها كانت تسير بنفس خطوات الغرب، فردّت بضاعة الغرب إليه وصبت كل الجهود في محصلته.

وإذن فالطريق الصحيح للخروج بالأمة الإسلامية من دائرة التخلف أن نعود إلى منهاج الإسلام في التغيير الحضاري، فنقوم بتفجير الطاقات الكامنة في الإنسان المسلم، وعندها نمتلك القدرة على القفز فوق كل الحواجز لتحقيق التقدم والإنجاز الحضاري.

إن الأمة الإسلامية لن يكون لها مكان على خريطة المستقبل إلا إذا تاب أبناؤها من خطيئة الكلام الكثير والعمل القليل، وإلا إذا شمر كل منهم عن ساعديه وتعبد الله في ليله ونهاره بالعمل الكثير... وبدون ذلك، ستبقى هذه الأمة بين مطرقة الغرب الحاقد وسندان أفعال أبنائها العاجزة، والتي لا تعدوا في كثير من الأحيان مجموعة من الكلمات!

إن التخلف الذي ترسف فيه أمتنا إنما هو في حقيقته نتيجة لازمة لكسلنا وعجزنا عن المبادأة في أي ميدان... ولا طريق لنا إلى التقدم إلا أن نكون على يقين أن الفعالية هي طريق الأمم إلى الحضارة[19].

---

[19] لمزيد من الاطلاع راجع - إن شئت -:
- بين الرشاد والتيه، مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق.
- مشكلة الثقافة، مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق.
- هذا الدين، سيد قطب، دار الشروق.
- أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق، أحمد كنعان، كتاب الأمة.

* * *

إحياء الفاعلية... وقيادة البشرية:

إن الأمة الإسلامية لا بد أن يسودها القلق من واقع التخلف الذي تعيشه، ولا بد أن يستشعر أفرادها الخطر من المستقبل الذي لن يحمل لهم - إن بقوا على كسلهم وعجزهم - إلا التبعية الذليلة التي يتحول فيها أفراد الأمة إلى خدم لأفراد الأمم الأخرى!

فإذا ساد الأمة القلق واستشعر أفرادها الخطر، فإن هذا يؤدي - إن شاء الله - إلى وضع جديد في الأمة يمكن أن نطلق عليه حالة إنقاذ... وأول ما يكون من أثر هذه الحالة في نفوس الأفراد أنها تحرمهم الشعور بالاستقرار لما يعتريهم ويسيطر على مشاعرهم من قلق لا يمكن دفعه إلا بتغيير واقع أمتهم... وهكذا ينطلق الأفراد الذين كانوا من قبل مُكبّلين بكسلهم... ينطلقون لأنهم يشعرون فجأة بانفجار ذاتي داخل نفوسهم... انفجار يطلق طاقاتهم المكبلة في اتجاه تغيير واقع الأمة.

إن الباب الذي يمكن للأمة الإسلامية أن تعود منه للحضارة هو باب الواجب، وهذا يعني أن نركز منطقنا الاجتماعي والسياسي والثقافي على القيام بالواجب أكثر من تركيزنا على الرغبة في نيل الحقوق، لأن كل فرد بطبيعته توّاق إلى نيل الحق، ونفور من القيام بالواجب... إذن فلا بد أن نوجه الأمة إلى القيام بالواجب، لأن المجتمع الذي يرغب في الارتفاع والتقدم لا بد أن يكون لديه فائض جهد، ولا يمكن تحصيل ذلك الفائض إلا أن يكون الواجب الذي يقوم به، أكثر من الحق الذي يطالب به.

إن التحلل من التبعات، والرخاوة في تناول الحياة، والإخلاد إلى الدعة والسكون والإقبال على المتاع، والأستسلام للواقع هو نوع من الخنوع والتقوقع والهروب من المسؤولية الذي لا ينتج إلا أمة ذليلة، ترضى بالدونية، ولا تحاول رفع رأسها...

إن الأمـة الإسـلامية لـن تسـتطيع أن تسـتعيد مكانهـا وسط الأمم التي تصنع التاريخ وتقـود البشـرية إلا إذا تحـرر أفرادها من جميع ضروب العطالة التي توقف الجهـد، ومـن سائر أعذار البطالة التي تبرر العجز والكسل... وبدأوا فـي الاعتياد على احترام قيمة الوقت، وتعلم أسلوب التخطيط، وتحريـك ملكـات الابتكـار، واسـتخدام العلـم لحـل الألغـام الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فـي الأمـة، وذلـك بنـزع فتيلها، وليس الارتماء عليها!

ولا شـك أن هـذا الهـدف يحتـاج مـن أفـراد الأمـة أن يكتسبوا القـدرة العلميـة، ويرتفعـوا إلـى مسـتوى الصـراع الحضاري، ويمارسوا ذلك الصراع بأصول إسلامية صـحيحة واستيعاب للواقع والعصر... وعندها سيكون هذا الجيل حداً فاصلاً بين عهدين: عهد الكسـل والخمـول، وعهـد النشـاط والحضارة.

ولقد أصبح العـالم يعيـش أزمـات حـادة تحـولت إلـى أمراض مزمنة في جسد البشرية، وفشلت كل الجهود فـي استئصالها... ولأن الأمة الإسلامية هي الـتي تمثـل الصـوت الذي ينادي البشرية إلـى الخيـر، ويـدعوها إلـى الكـف عـن جميـع الشـرور {كنتـم خيـر أمـة أخرجـت للنـاس تـأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر}... لذلك، فهي الجديرة بـأن تكون المحور الذي يتحرك من حـوله العـالم كلـه، والقيـادة التي تتابعها البشرية جمعـاء... ولا يمكـن أن يتـم ذلـك فـي واقـع البشـرية اليـوم إلا بالجهـاد، لأن القـوى الجاهليـة لـن تسمح للأمة الإسلامية أن تمارس هذه القيادة إلا أن تخوض جهـاداً شـاقاً، يتقـرر بعـده البقـاء للأصـلح، لا بـالمعنى الداروينـي الفاسد، ولكن بالمعنى الرباني المقرر في كتـاب الله: {ولقد كتبنا في الزبور من بعد الـذكر أن الأرض يرثهـا عبادي الصالحون}، {فأمّا الزبد فيذهب جفاءً وأمَّا مـا ينفـع الناس فيمكث في الأرض}[20].

[20] لمزيد من الاطلاع راجع - إن شئت -:
- شروط النهضة، مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق.
- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق.
- معالم في الطريق، سيد قطب، دار الشروق.
- إخراج الأمة المسلمة، ماجد عرسان الكيلاني، كتاب الأمة.
- الجهاد الأفغاني ودلالاته، محمد قطب، مؤسسة المدينة، جدة.

الخلاصة
هذا هو الطريق

الإسلام هو سبيل الأمـة الإسـلامية - وكـل البشـرية - إلى الحياة الراشدة الهانئة... هذه حقيقة...

ولكن الإسلام لا يقود إلى هذا النوع مـن الحيـاة إلا إذا جرت خطوات عرضه وتطبيقه حسب منهاج واضح وترتيـب محدد.

ومـن هنـا فـإن أكـبر التحـديات الـتي تـواجه الحركـة الإسـلامية - فيمـا نـرى - هـو تحـدي المشـروع الحضـاري الإسلامي المتكامل الـذي يطـرح الإسـلام كمعادلـة فكريـة وسياسـية واقتصـادية واجتماعيـة، فـي مواجهـة المعادلـة العلمانية التي تريد إبعاد الأمة الإسلامية عـن خـط الإسـلام لتُقَربها إلى خط الكفر!

والمشروع الحضاري الإسلامي المنشود، ليس أبحاثـاً أو رسائل نظرية ميتـة مدفونـة فـي مقـابر تسـمى الكتـب، وإنما هو أبحاث ورسائل تحمل جنين العمل الإيجـابي الـذي يظهر في صورة بديل واقعي يملك الاسـتراتيجية الواضـحة لتحويل الأهـداف الـتي يسـعى إليهـا إلـى واقـع حـيّ يحكـم الحياة، ويخطط لها بالوسائل القويـة الـتي تـواجه العقبـات وتتخطـى الصـعوبات، وتزيـل الحـواجز عـن طريـق الأمـة الإسلامية لتفسح لها المجال إلى ريادة البشرية من جديد.

ولكي لا نوغل في حلم ريـادة البشـرية علـى حسـاب حقيقـة التبعيـة، أو نهـرب مـن مواجهـة واقـع الإستضـعاف بالانغماس في خيـال التمكيـن، لا بـد أن نحـزم أمرنـا ونعـد عدتنا، ونَجّد السير في طريق إخـراج الأمـة الإسـلامية مـن

التبعية إلى الريادة، ومن الاستضعاف إلى التمكين... ذلك الطريق الذي يمكن أن نتبين أهم معالمه فيما يلي:

* * *

إقامة الفرقان الإسلامي:

بينما كان الاستعمار القديم يستعين بقواته العسكرية لقهر شعوب المستعمرات، لم يعد الاستعمار الجديد في حاجة إلى استخدام القهر بالقوات العسكرية، بعد أن أفلح في اختيار عملائه وصنائعه من النخبات الوطنية التي أُشْرِبت في قلوبها ثقافة الاستعمار، وتربت على يديه، ونشأت في كنفه ورعايته... ثم وقفت تحت راية الوطنية وتخفت وراء لافتة الإسلام لتقوم بمؤمراة التباس الحق بالباطل التي تفتن الأمة عن دينها، وتمزق وحدتها وتشتت شملها، وتُجد فيها الثغرات التي ينفذ من خلالها العدو ليحطم قواها ويستنزف طاقاتها...

لقد تمكّن أعداء الأمة الإسلامية عبر النخبات الوطنية، من مزج الإسلام بالأفكار الغربية عنه من علمانية وقومية ووطنية وغيرها، ليلتبس على الأمة أمر دينها، وليصبح الإسلام الواحد بعقيدته ومبادئه وتشريعاته اسماً متعدداً بتعدد ألوان مؤامرة الالتباس التي تصد الأمة عن سبيل الإسلام الحق.

ومن هنا فإنه لا يمكن تحقيق انطلاقة قوية في طريق إحياء الأمة الإسلامية إلا بإقامة الفرقان الذي يرفع الالتباس ويُسْقِط اللافتات الخادعة التي تتوارى خلفها العلمانية، فيتمايز الناس إلى فسطاطين: فسطاط نفاق لا إيمان فيه، وفسطاط إيمان لا نفاق فيه... وعندها تخرج الأمة الإسلامية من حالة التذبذب إلى الانحياز إلى دينها وشريعتها، والانتصار لإسلامها من كل أعدائها.

* * *

إحياء الهوية الإسلامية:

تُشكّل الهوية - في أي أمة - الحافز الأيدلوجي والدافع النفسي الذي يدفع الأمة في طريق التقدم

والحضارة، ويقاوم في ذات الوقت الاجتياح الحضاري للأمم الأخرى... فما هي هّوية الأمة الإسلامية؟

لا شك أن الإسلام وحده هو هّوية الأمة الإسلامية، ومحور اجتماع أفرادها، والقوة الدافعة التي تفجر طاقاتها وتقوى وقفتها في مواجهة كل أعدائها.

فماذا فعل الحكام العملاء بهّوية الأمة الإسلامية؟

لقد قام هؤلاء العملاء من بني جلدتنا بإبعاد الإسلام كهّوية للأمة الإسلامية، وزعموا أن طريق الإحياء الحضاري للأمة هو إحياء الهوية الوطنية والمشروع القومي المتجدد!

فأمّا الهوية الوطنية فقد فرّقت الأمة الإسلامية إلى كيانات ومجتمعات منفصلة وأصبح الفرد في ظلها يعاني من الاغتراب وفقدان الانتماء للأمة، فانعزل داخل همومه الفردية واهتماماته الذاتية... وتحولت المجتمعات الإسلامية إلى ركام من الأفراد لا يربطهم خيط جامع... ووصلت الأمة إلى المعادلة الصعبة: وطن بلا مواطنين، ومواطنون بلا وطن!

وأمّا المشروع القومي المتجدد الذي تحاول العلمانية من خلاله إيجاد الهدف المشترك الذي يشد أفراد الأمة بعضهم إلى بعض... فقد أثبت واقع الأمة الإسلامية فشله، لأن هذا المشروع المفتعل يخبو ويظهر، ويقوى ويضعف... وعند ضعفه تبدأ ظواهر الاغتراب وفقدان الانتماء في الظهور، وتقل مشاركة الأمة، فيتحكم الرعاع والسفهاء من خلال نظم استبدادية متعسفة تقوم بتفريغ شامل لكل قوى الأمة، فتصل إلى التبعية الذليلة للأمم الأخرى...

وإذن فإن نقطة التحول في طريق الإحياء الحضاري للأمة الإسلامية، ونزع الريادة من يد أعدائها، هي إحياء الهوية الإسلامية التي تُشكّل محور الاستقطاب القوي الذي يجمع شتات أفراد الأمة حول مرتكزات عقائدية من الاجتماع على الإسلام والولاء والبراء عليه، ومن ثم يتيح لأفراد الأمة الإسلامية تكوين أمة متماسكة... وإذا تماسكت الأمة، وملئ الفراغ الاجتماعي بين أفرادها، اختفت ظواهر الاغتراب وفقدان الإنتماء، وحمل أفراد الأمة هموم أمتهم وقاموا برسالتها، وأصبح قادة الأمة هم أولو الألباب... وعندها تكون الوثبة القوية والانطلاقة

الحضارية الكبرى التي تحطم الأغلال الـتي وضـعها الأعـداء على الأمة الإسلامية.

* * *

التربية الإسلامية الشاملة:

يتأسس بنيان المشروع الحضاري العلماني على شفا جرف هار من مفاهيم الغرب الكاثوليكية عن الدين، والــتي تجعل الإسلام مجموعة من الطقوس والشعائر لا علاقة لها بشأن من شؤون الحياة!

ومن هنا كان تعامل زعماء العلمانية مع مشاكل الأمة الإســلامية وأزماتهــا الحضــارية، تعــاملاً ناقصــاً يشــوبه الأضــطراب والعجــز... ومــا ذلــك إلا لأن هــؤلاء الزعمــاء يحاولون معالجة كل أزمـات الأمـة ومشـاكلها بــ جـزء مـن الإسلام!

ومن هنا فإن المشروع الحضـاري الإسـلامي لا بـد أن يكـون منهاجـاً للتغيير الكامـل والجـذري، يقـوم بمجابهـة الأزمات الحضارية للأمة والانتكاسات الفرديـة والاجتماعيـة عــبر خطــاب إســلامي شــامل يهتــم بالجــانب العقيــدي والتشـريعي والسـلوكي اهتمامـاً متوازنـاً ومتعانقـاً، يعالـج السلوك العقائدي والاجتماعي والأخلاقي علاجاً شافياً...

ولكي يحقق الخطـاب الإسـلامي الشـامل الإسـلامي أهـدافه فـي تغييـر الإنسـان وإحيـاء الأمـة لا بـد أن تتحـول كلمـاته إلـى منهـاج تربـوي شـامل يعمـل فـي إطـار مـن الشمولية والواقعية والتدرج على إخراج العبد الرباني الذي يكون هو المثال الإنساني القـادر علـى حمـل رسـالة الأمـة الإسلامية والجهاد في سبيلها.

إن الأمة الإسلامية لا تستطيع حمـل رسـالتها وإخـراج رسالتها وإخراج من شاء الله من عبـادة العبـاد إلـى عبـادة اللــه وحــده، ومــن ظلمــات الجاهليــة إلــى نــور الإســلام، إلا برجــال مــن رجالهــا يبلغــون دعــوة اللــه، ويــؤدون أمــانته، ويقاتلون بمن أطاعهم من عصاهم حتى يأتي الله بالفتـح أو أمر من عنده...

ولا شك أن السبيل إلى بناء هذا الصنف من الرجال هو التربية الإسلامية الشاملة العميقة التي تصفّي عقائد الأمة للعوامل الحية والداعية للحياة، فيتم إحياء الأمة، وتعود رسالتها الحضارية من جديد.

* * *

إخراج الأمة المسلمة:

تقوم الأنظمة العلمانية على أساس من مصادرة حرية الأمة وحقها في اختيار حكامها، بل وحقها في بناء حياتها... ولذلك يكون الحكم فيها من نصيب الحاكم الذي يمارس التسلط والتحكم في جماهير الأمة، ولا يسمح لهم بأدنى مشاركة له، مستخدماً في ذلك شرطته وأجهزة مخابراته...

وفي ظل عنف الحكام في معاملة خصومهم السياسيين، وإرهابهم لكل من يعارض أمراً يهمون به... في ظل ذلك تخلي أكثر الأمة عن واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالنسبة للحكام، وآثروا العافية يأساً من الإصلاح، ورغبة في إصلاح الذات!

وهكذا، أصبح الخضوع لأوامر الحكام مهما كانت عادة عند أكثر أفراد الأمة، كما يدق الجرس على الفور وراء ضغط الزر واتصال التيار.

وفي ظل هذا الواقع، لا بد أن نؤكد أن المسؤولية عن الإسلام هي مسؤولية كل من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله على تفاوت في الدرجات بتفاوت الاستعدادت، والقدرات، والمواقع، والظروف...

وأن العمل الإسلامي هو جهاد أمة وليس جهاد حزب أو جماعة أو تنظيم.

ومن هنا فإن إخراج الأمة المسلمة هو العلاج الحاسم لطغيان الحكام، والوقاية الحقيقية لكل المسلمين من نماذج الأنظمة الطاغية التي تُخْرِجها العلمانية، والتي يراد بها حرق المستضعفين من المَسلمين في أتون الظلم والقهر والاستعباد.

إننا إذا أردنا للأنظمة العلمانية التلاشي، وللخندق العلماني الاندثار، فإن طريقنا إلى ذلك هو إخراج الأمة المسلمة ذات الشخصية الثابتة والصبغة الواضحة والراية المتميزة... الأمة المسلمة التي تتمتع بـ المناعة السياسية فلا تصبر على ظلم الملوك ولا تقبل استبداد الرؤساء، بل تُدْرِك أن لها دوراً في ترشيد الحكم والرقابة على أعمال الحَاكم وعدم الرضا منه بمخالفة ما أنزل الله.

فإذا وُجِدَت هذه الأمة، فإنها قادرة بإذن الله على أن تجرف في طريق جهادها كل الأنظمة العلمانية الورقية، وتلقى بها في مزابل التاريخ.

* * *

الطليعة تقود الأمة:

يضع الإسلام لقيادة الأمة الإسلامية شروطاً دقيقة وموصفات خاصة. وتؤكد الأصول الإسلامية أن أولي الأمر الذين قرن الله في قرآنه طاعتهم بطاعته وطاعة رسوله في قوله عز وجل: {يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم}... هم العلماء والأمراء، وليسوا الأمراء أو الحكام وحدهم... بل إن أكثر المفسرين يرون أنهم العلماء وحدهم.

ولا شك أن هذا الاهتمام بأمر القيادة في الأمة الإسلامية، يرجع إلى أن الأمة التي يقودها ويتولى زمام أمورها فقهاء وألو الألباب تتقدم وتنتصر... أمّا الأمة التي يقودها ويتولى زمام أمورها خطباء لا يحسنون إلا التلاعب بالمشاعر والعواطف... فإنها تبقى تتلهى بـ الأماني حتى إذا جابهت الأزمات لم يفقه حكّامها من الخطباء ماذا يصنعون؟... وآل أمرهم إلى الفشل، وأحلوا أمتهم دار البوار.

وتكفي نظرة واحدة على واقع الأمة الإسلامية اليوم، لندرك أن في مقدمة الأسباب التي أدت إلى هذا الواقع أن قادتها وولاة أمورها من الخطباء الذين يظنون أن الأزمات يمكن حلّها بالأقوال، وأن التحديات يمكن مواجهتها بالخطب النارية! ولذلك فهم على قطيعة مع رجال الفقه والفكر، تصل أحياناً إلى درجة تحطيم الرؤوس المفكرة واعتقال أصحاب الفقه... بينما هم على صلة وثيقة وحميمة مع المنافقين من الإعلاميين والصحفيين الذين يُطرِبونهم

بحـداء النفـاق ليـل نهـار، ويطـالبون الأمـة أن تـترك لهـم مواجهـة التحـديات وعلاج الأزمـات بــ أقـوالهم السـديدة وخطبهم القوية!

ومن هنا فـإنه لا سـبيل إلـى الإحيـاء الحضـاري للأمـة الإسلامية إلا أن يوجـد فـي الأمـة فقهـاء يتصـفون بصـفات المؤمنين ويتحركون على أساس مـن الـوعي بقيـم الـوحي قرانا وسنة مع الدراية بشؤون الواقع...

فقهاء يتميزون بمنهجيتهم وموضـوعيتهم وشـجاعتهم في رؤية حقائق الواقع، ومواجهة تحديات العصر...

فقهـاء يسـحون مأسـاة الأمـة الإسـلامية، فيسـعون بإرادة عازمة للإنتقال من حالـة الحـس بهـذا المأسـاة إلـى حالة الوعي بالأسباب التي أدت إليـه، ثـم يقومـون بالعمـل الجاد لاقتلاع جذور هذه المأساة مـن واقـع الأمـة، وقيادتهـا إلى خيري الدنيا والآخرة...

ولكـي يسـطيع هـؤلاء الفقهـاء حمـل رسـالة أمتهـم وتقديم العطاء الحضاري المنشود، لا بد أن يكون عملهم بــ روح الفريـق ولا بـد أن تربـط بينهـم شـبكة مـن العلاقـات العقائدية والاجتماعية خيوطها الإيمـان والتكامـل والتناصـر والجهاد في سبيل الخروج بالأمة الإسلامية من التبعيـة إلـى الريادة ومن الاستضعاف إلى التمكين... فإذا كـانوا كـذلك، فإنهم يمثلون في الأمة نواة الخلية الحضـارية الـتي يتكـون منهـا ومـن غيرهـا مـن الخلايـا الجسـم الحـيّ للمجتمـع الإسلامي والبناء الحضاري للأمة الإسلامية...

إن نواة الفقهاء التي تتسم بالفعالية والحيوية، تجـذب إليها صفوة الفكـر والتجـارب وخيـرة القـدرات والإمكانـات ليتكون من هؤلاء جميعاً طليعة قوية قادرة على تحدي كـل أعداء الأمة، ومواجهـة جميـع أزماتهـا، والسـير فـي طريـق الاحيـاء الحضـاري بصـبر ودأب، حـتى يـأذن اللـه بالانبعـاث الإسلامي المنشود...

وإذن فإن قيادة الطليعة المؤمنة للأمة الإسـلامية هـو فـي حقيقتـه أمـر تشـترطه أسـس التغييـر، وتسـتدعيه متطلبات التمكين.

* * *

إحياء الفاعلية الإسلامية:

يُقَسِّم المراقبون العالم اليوم إلى الشمال تعبيراً عن العالم المتقدم... والجنوب تعبيراً عن العالم المتخلف...

فأمّا الأول: فيتمثل في الدول المتقدمة، ويشمل محور اليابان ودول أوربا الغربية وأمريكا الشمالية وحلفائهم.

وأمّا الثاني: فيتمثل في بقية دول العالم التي تقع خارج هذه المحاور.

ولا شك أن السبب الأول للهوّة الحضارية بين الشمال والجنوب، أن دول الأول يتميز أفرادها بـ الفاعلية والحرص على الوقت، والتوجه بنشاطهم إلى العمل الجاد في سبيل تقدم أمتهم.

أمّا دول الثاني، فإن أفرادها يغلب عليهم انعدام الفاعلية والنظر إلى الوقت على أنه لا قيمة له، وتوجه نشاطهم إلى اللغو والحديث غير المنتج.

ولكي نوضح ما نقول فإنه من المستحسن أن نتأمل تجربة بلد مثل اليابان... إن هذه الدولة تعيش في منطقة فقيرة في مواردها الخام... كما أن وضعها الجغرافي لا يجعلها منطقة استراتيجية... ولكنها مع ذلك تتقدم يوماً بعد يوم ويغزو إنتاجها العالم الغربي... فما سر ذلك؟

إن السر يكمن في أن فاعلية الإنسان الياباني أضعاف أضعاف غيره من أفراد الأمم المختلفة الذين انعدمت فاعليتهم وتورات جهودهم...

إن المتأمل للنماذج التنموية في الأمة الإسلامية يجد أن الأنظمة العلمانية تركز على عنصر رأس المال على أنه العنصر الوحيد القادر على تحقيق التقدم...

ولذلك فهي تهمل بناء الإنسان لتنفق على بناء المصانع!

ولا شك أن هذه الطريقة في البناء الحضاري هي طريقة العملاء الذين يحبون أن تظهر أنظمة حكمهم بمظهر التقدم، فيقيمون المصانع العملاقة، ثم يستوردون

كل معداتها من الدول المتقدمة... ويستوردون معها كوادر العمل في هذه المصانع. فلا يكون لهذه المصانع والمشروعات التنموية - رغم الإنفاق الكبير فيها - أدنى أثر في التقدم الحضاري المادي... وما ذلك إلا لأن الإنسان في كل هذه المشروعات يكون غائباً، أو على أحسن الأحوال يكون حاضراً ولكنه يعاني من اللافاعلية...

إنه ليس من الضروري ولا من الممكن أن يكون لمجتمع فقير المليارات من الذهب كي ينهض ويسير في طريق البناء الحضاري... وإنما ينهض ويبني حياته وحضارته بالرصيد الأساسي للحضارة الإنسان. وما التخلف الذي ترسف فيه الأمة الإسلامية إلا نتيجة لازمة لعجز الإنسان فيها عن المبادأة في أي ميدان.

إن حلبة الصراع الحضاري تفرض على الأمة الإسلامية إحياء فاعلية الإنسان المسلم، والتخلص من جميع ضروب العطالة التي توقف جهده وتبرر عجزه، ليبدأ من جديد في الاعتياد على احترام قيمة العمل والجهد، ويتعلم أسلوب التخطيط وتحريك ملكات الابتكار، واستخدام العلم في حل الألغام الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي تملأ ساحة الأمة الإسلامية... حل هذه الألغام بنزع فتيلها، وليس بـ الارتماء عليها. فإذا نشأ في الأمة هذا الإنسان، كانت حركتها كحركة خلايا النحل التي لا ينقطع طنينها بالليل ولا بالنهار... وعندها سيقضي عدل الله برفع هذه الأمة التي تتعامل مع سنة الله وتعمر الأرض... وخفض أمم أخرى قعد أفرادها وعجزوا وغرتهم الأماني...

* * *

الريادة البشرية:

يتوقف وجود أية أمة في الحياة على حمل هذه الأمة لرسالتها... فإذا ضعفت عن حمل هذه الرسالة، انتهى وجود الأمة وحل محلها أمة أخرى لا علاقة لها بها، وإن ربطتها بها روابط الدم والأرض واللغة والثقافة...

وهذا هو ما فهمه عمر بن الخطاب رضي الله عنه من قول الله عز وجل: {كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله} حيث قال في تفسيرها: لو شاء الله لقال: أنتم، فكنا كلنا... ولكن قال: كنتم في خاصة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن صنع صنيعهم، كانوا خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

وإذن فالأمة الإسلامية إنما تتميز بقيامها برسالتها في الدعوة إلى المعروف وفعل الخير، والنهي عن المنكر وجميع الشرور... فإذا تخلت عن شيء من هذه الرسالة نقصت قيمتها بقدر ذلك... أمّا إذا تخلت عن هذه الرسالة بكاملها، فإن مصيرها هو الاختفاء من الوجود والحياة...

ولا شك أن الأمة الإسلامية لا تستطيع حمل رسالتها في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا إذا كانت تملك الرادع للعقل الغربي الذي لم يتخل بعد، وقد لا يتخلى عن حب العدوان والبسطرة، لاستعباد الآخرين، ونهب مقدراتهم، وإشاعة التخلف في حياتهم...

ومن هنا يبرز الجهاد رادعاً للعقل الغربي ومضاعفاته في الفتنة والفساد... يبرز الجهاد ليعكس مفهوم الأمن الإسلامي الذي يركّز على إيصال الرسالة وتبليغها إلى الآخرين في جو من الأمن الفكري والمادي والنفسي والشعوري يزيل العوائق التي تحول بين الناس وبين رؤية الحق على حقيقته، أو تمنع مَنْ تبينه من اتّباعه...

إن العالم اليوم يعيش أزمات حادة، تحولت عبر الزمن إلى أمراض مزمنة في جسد البشرية... وفشلت كل الجهود في استئصالها... ولقد جاء دور الأمة الإسلامية التي تحمل الرسالة الربانية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... جاء دور الأمة الإسلامية التي تنادي البشرية إلى الخير، وتدعوها إلى الكف عن جميع الشرور، وتدفع عنها بـ الجهاد فتنة ما يسمى بـ النظام العالمي الجديد القائم على الطغيان، والذي يسعى المترفون في ظله إلى الانفراد بمصادر العيش وقتل أيتام المستضعفين بسلاح الجوع والفقر!

وحين تقوم الأمة الإسلامية بهذا الدور، وتخوض في سبيله الجهاد الشاق سيكون البقاء للأصلح، لا بالمعنى الداروينى الفاسد، وإنما بالمعنى الرباني: {فأمّا الزبد

فيذهب جفاء وأمّا ما ينفع الناس فيمكث في الأرض}، وسيُخْرج الله بهذه الأمة من شاء الله من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة... وستعود الأمة الإسلامية مرة أخرى إلى الريادة البشرية.

* * *

وبعد:

فقد كانت هذه محاولة لعرض معالم الإحياء الحضاري الإسلامي، حاولت فيها الابتعاد عن الشعارات لأقترب من واقع الأمة وحقائق العصر...

وتركت فيها طريق التخلف القائم على التشنج والارتجال، لألتزم العرض الهادئ لمكونات رؤية إسلامية لطريق الإحياء الإسلامي، ومعالم المشروع الحضاري الذي يمتلك مصداقية المواجهة الحضارية مع أعداء الأمة، ويمثل البديل عن الأنظمة العلمانية الوضعية المطبقة في واقع الأمة الإسلامية اليوم...

وأترك لـ الأمة التمييز بين الغث والثمين، وبين المسلمين الذين يبذلون جهدهم وحياتهم - وكل ما يملكون - في هدوء لتنهض الأمة الإسلامية وتخرج من الاستضعاف إلى التمكين ومن التبعية إلى الريادة... وبين العلمانيين الذين لا يهتمون إلا بمصالحهم الذاتية ولا يتقنون إلا فن الكلام[21].

منبر التوحيد والجهاد

* * *

sw.dehwat.www//:ptth
ten.esedqamla.www//:ptth
ofni.hannusla.www//:ptth

moc.adataq-uba.www//:ptth

[21] ملاحظة: هذه كانت الخطوط العريضة للكتاب، لا تُغني عن مطالعة الكتاب.